الأسرار والعبر في الاستفتاح بالقسم في أوائل السور

د/ عبد الرحمن محمد
مدرس التفسير وعلوم القرآن في الكلية

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد. فإن القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة الباقية التى أيد الله ــ تعالى ــ بها نبيه محمدا ــ صلى الله عليه وسلم ــ على مر العصور والأزمان.

وقد حوى هذا الكتاب العظيم الكثير من الحكم العالية والهدايات السامية التى أعجزت العالمين

وقد كان من تلك الحكم والهدايات والأسرار التى اشتمل عليها القرآن الكريم أن جاء القسم فاتحة لكثير من السور القرآنية، ووواردا في ثنايا كثير من سوره.

وأسلوب القسم من الأساليب القوية التى ألفها العرب وجرت به عادتهم فى أساليب خطابهم فهو في اللغة العربية من المؤكدات المشهورة، التي تجعل المخاطب يطمئن لما يلقى على مسامعه.

وقد نزل القرآن الكريم للناس كافة، وقد تباينت مواقف الناس تجاه هذا الكتاب وما حواه من أخبار وأقوال، فكان منهم المؤمن المصدق، ومنهم الشاك المكذب، ومنهم الجاحد المعاند. فجاء القسم في كتاب الله، لإزالة شكوك الشاكين، ولإحباط شبهات المنكرين، ولإقامة الحجة على المعاندين، ولتوكيد الأخبار، لتطمئن نفس المخاطب إلى الخبر، لا سيما في الأمور العظيمة التي أقسم عليها.

ولما كان البدء بالقسم فى أوائل سور القرآن فاتحة من عشر فواتح استهلت بها سور القرآن الكريم، رأيت من الضروة والأهمية بمكان كشف أسرار استفتاح القرآن بهذا الأسلوب البليغ فتناولت فى هذه الدراسة بعض أسرار القسم وحِكَمه وعبره فى السور القرآنية التى افتتحت بالقسم، وجاء البحث بعنوان (الأسرار والعبر فى الاستفتاح بالقسم فى أوائل السور).

ومما دعانى إلى البحث فى هذا الموضوع محاولة متواضعة للكشف عن جانب من أسرار الكتاب المعجز. كما رأيت أن البحث فى مثل هذا الموضوع يكشف عن وجه من

وجوه إعجاز القرآن الكريم. أضف إلى ذلك ما وقفت عليه من الحكم البالغة والعبر الساطعة فى الاستفتاح بالقسم فى أوائل هذه السور.

ولم تغب هذه الحكم والأسرار عن علمائنا المتقدمين، بل تعرضوا لها فى أثناء تفسيرهم لآيات القسم، وأفردها بعضهم بالتصنيف المستقل كالإمام ابن القيم – رحمه الله –.

ومما لا شك فيه أن السير فى هذه الدراسة كان فيه مشقة، سببها هو الاختلاف الكبير فى معانى بعض الكلمات التى أقسم الله ــ تعالى ــ بها فى مفتتح هذه السور، ولكننى اجتهدت قدر استطاعتى فى أن أبين معنى هذه الكلمات التى وقع بها القسم مقتصرا على أرجح ما قيل فيها مع محاولة إيجاد المناسبة بينها وبين المقسم عليه بها، قدر الجهد والاستطاعة.

وسيكون منهج هذه الدراسة توضيح معانى الآيات المشتملة على القسم، مع بيان ما اشتملت عليه من أسرار وعبر، وتعيين المقسم عليه مع بيان مناسبة المقسم به للمقسم عليه.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون فى مقدمة، وتمهيد، وفصلين، وخاتمة.

أما **المقدمة** فكانت عرضا لأهمية الموضوع، وسبب اختياره، ومنهجه، وخطته.

وأما **التمهيد** فقد جاء بعنوان القسم بين فواتح سور القرآن الكريم.

وأما **الفصل الأول** فتحدثت فيه عن القسم، وما يتعلق به من حيث تعريفه، وأقسامه، وأركانه وأغراضه وأهدافه.

وأما **الفصل الثانى** فقد جاء بعنوان : السور المفتتحة بالقسم وما اشتملت عليه من أسرار وعبر. وقد احتوى على سبعة عشر مبحثا:

المبحث الأول: الأسرار والعبر فى الاستفتاح بالقسم فى أول سورة الصافات.

المبحث الثانى: الأسرار والعبر فى الاستفتاح بالقسم فى أول سورة الذاريات.

المبحث الثالث: الأسرار والعبر فى الاستفتاح بالقسم فى أول سورة الطور

المبحث الرابع: الأسرار والعبر فى الاستفتاح بالقسم فى أول سورة النجم

المبحث الخامس: الأسرار والعبر فى الاستفتاح بالقسم فى أول سورة القيامة

المبحث السادس: الأسرار والعبر فى الاستفتاح بالقسم فى أول سورة المرسلات

المبحث السابع: الأسرار والعبر فى الاستفتاح بالقسم فى أول سورة النازعات

المبحث الثامن: الأسرار والعبر فى الاستفتاح بالقسم فى أول سورة البروج

المبحث التاسع: الأسرار والعبر فى الاستفتاح فى القسم بأول سورة الطارق

المبحث العاشر: الأسرار والعبر فى الاستفتاح فى القسم بأول سورة الفجر

المبحث الحادى عشر: الأسرار والعبر فى الاستفتاح بالقسم فى أول سورة البلد

المبحث الثانى عشر: الأسرار والعبر فى الاستفتاح بالقسم فى أول سورة الشمس

المبحث الثالث عشر: الأسرار والعبر فى الاستفتاح بالقسم فى أول سورة الليل

المبحث الرابع عشر: الأسرار والعبر فى الاستفتاح بالقسم فى أول سورة الضحى

المبحث الخامس عشر: الأسرار والعبر فى الاستفتاح بالقسم فى أول سورة التين

المبحث السادس عشر: الأسرار والعبر فى الاستفتاح بالقسم فى أول سورة العاديات

المبحث السابع عشر: الأسرار والعبر فى الاستفتاح بالقسم فى أول سورة العصر

وأما **الخاتمة** فقد اشتملت على أهم النتائج التى توصلت إليها من خلال هذه الدراسة.

وإنى أستعين الله ــ تعالى ــ فى عملى هذا، لعلى أكون قد ساهمت بهذا الجهد المتواضع فى خدمة كتاب الله ــ تعالى ــ، راجيا منه العفو والتوفيق، إنه نعم المجيب وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

تمهيد

القسم بين فواتح سور القرآن الكريم

استفتح الله ــ سبحانه ــ سور القرآن الكريم بعشرة أنواع من الفواتح، ولا تخرج سورة من سور القرآن الكريم عن الافتتاح بأحد هذه الفواتح العشرة.

وسور القرآن الكريم مائة وأربع عشرة سورة، منها الطوال جدا كسورة البقرة وآل عمران والنساء، ومنها دون ذلك فى الطول مثل المائدة والأعراف والتوبة ويونس، ومنها القصار جدا مثل سورة العصر والنصر والكوثر والإخلاص، ومنها دون ذلك مثل سورة يس والصافات والحواميم، ومنها المتوسط بين الطوال لا جدا والقصار لا جدا مثل سورة الأحزاب والعنكبوت ولذلك كان نصف القرآن الأول دون العشرين من السور ونصفه الثانى أكثر من التسعين من السور، ويلغز فى ذلك فيقال كما ذكر الزركشى: ما شئ إذا عددته زاد على المائة، وإذا عددت نصفه كان دون العشرين.(١)

فعدد سور القرآن الكريم مائة وأربع عشرة سورة، والنصف الأول منه حوالى سبع عشرة سورة من حيث الكم، أما من حيث العدد فهو سبع وخمسون سورة.

والفواتح العشرة التى افتتح الله ــ تعالى ــ بها سور القرآن الكريم هى ما يلى:

١ــ الاستفتاح بالثناء. ٢ــ الاستفتاح بحروف التهجى

٣ــ الاستفتاح بالنداء ٤ــ الاستفتاح بالجمل الخبرية

٥ــ الاستفتاح بالقسم ٦ــ الاستفتاح بالشرط

٧ــ الاستفتاح بالأمر ٨ــ الاستفتاح بالاستفهام

٩ــ الاستفتاح بالدعاء ١٠ــ الاستفتاح بالتعليل

أولا: الاستفتاح بالثناء. والثناء على الله ــ تعالى ــ قسمان إثبات لصفات المدح، ونفي وتنزيه من صفات النقص.

---

(١) البرهان فى علوم القرآن لمحمد بن بهادر الزركشى١/١٦٤ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ــ نشر المعرفة ــ بيروت.

والسور التى افتتحها الله ــ تعالى ــ بإثبات صفات المدح والكمال سبع سور، خمس سور افتتحت بالحمد لله وهى سورة الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر، واثنتان افتتحتا بـ (تَبَارَكَ) وهما سورتا الفرقان والملك.

وافتتح ــ سبحانه ــ سبع سور أخرى بتنزيهه عن صفات الذم والنقص وهى : الإسراء، والأعلى والحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن.

والتسبيح لله معناه تنزيه الله ــ تعالى ــ عن كل نقص. والحمد لله معناه وصفه ــ تعالى ــ بكل كمال. فهذه أربع عشرة سورة استفتحت بالثناء على الله ــ تعالى ــ لثبوت صفات الكمال ونصفها لسلب النقائص.

قال الزركشى : قلت وهو سر عظيم من أسرار الإلوهية. قال صاحب العجائب[1] : سبح لله هذه كلمة استأثر الله بها فبدأ بالمصدر منها في بني إسرائيل ؛ لأنه الأصل. ثم بالماضي سبح لله في الحديد والحشر والصف ؛ لأنه أسبق الزمانين. ثم المستقبل في الجمعة والتغابن. ثم بالأمر في سورة الأعلى استيعابا لهذه الكلمة من جميع جهاتها وهى أربع المصدر والماضي والمستقبل والأمر المخاطب فهذه أعجوبة وبرهان.[2]

ثانيا: الاستفتاح بحروف التهجي وذلك في تسع وعشرين سورة. فافتتاح البقرة، وآل عمران بـ (الم) وافتتاح الأعراف بـ(المص)، وافتتاح الرعد بـ(المر)، وافتتاح سورة مريم بـ(كهيعص) وافتتاح يونس، وهود، ويوسف، وإبراهيم، الحجر بـ (الر)، وافتتاح سورة طه بـ (طه) وافتتاح الشعراء والقصص بـ(طسم)، وافتتاح النمل بـ (طس)،

---

(١) هو: محمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين الكرماني، ويعرف بتاج القراء، عالم بالقرآت. له مؤلفات منها : البرهان في متشابه القرآن، و(لباب التفاسير) وهو المعروف بكتاب (العجائب والغرائب) ضمنه أقوالا في معاني بعض الآيات، قال السيوطي في الاتقان : لا يحل الاعتماد عليها ولا ذكرها إلا للتحذير منها. توفى حوالى سنة خمسمائة. الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ١٨٧/٢ نشر دار الفكر، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين لإسماعيل باشا البغدادي ٢٢٩/٥ ــ طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها استانبول سنه ١٩٥١ ــ دار إحياء التراث العربي بيروت ــ لبنان، الأعلام لخير الدين الزركلى١٦٨/٧ نشر دار العلم للملايين ــ ط خامسة عشر ــ ٢٠٠٢م.

(٢) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ١٦٥/١، الإتقان فى علوم القرآن لجلال الدين السيوطى ١٠٥/٢ــ١٠٦

وافتتاح ص بـ(ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ)، وافتتاح سورة ق بـ (ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ)، وافتتاح سورة ن بـ (ن وَالْقَلَمِ)، وافتتاح سورة غافر وفصلت والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف بـ (حم)، وافتتاح الشورى بـ (حم عسق)، وافتتاح سورة يس بـ (يس. وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ).

ثالثا: الاستفتاح بالنداء، والسور التى افتتحت بالنداء، هى سورة الحجرات، والأحزاب والمدثر، والمائدة، والممتحنة، والتحريم، والنساء، والحج، والمزمل، والطلاق. وهذه عشر سور.

رابعا: الاستفتاح بالجمل الخبرية، والسور التى افتتحت بالجملة الخبرية: سورة الأنفال وسورة براءة، وسورة النحل، والأنبياء، والمؤمنون، والنور، والزمر، ومحمد، والفتح والقمر، والرحمن، والمجادلة، والحاقة، ونوح، وعبس، والقدر، والبينة، والتكاثر، والكوثر والمعارج، والقارعة، وذكر كثير من العلماء من السور المفتتحة بالخبر سورتى القيامة والبلد ولكننى جعلتهما فى السور المفتتحة بالقسم، وهو موضوع هذه الدراسة، وذلك لما ترجح لدى أثناء الدراسة أنهما من السور المفتتحة بالقسم.

خامسا: الاستفتاح بالقسم :

فالقسم أحد الأنواع العشرة التى افتتحت بها سور القرآن الكريم. خمس عشرة سورة سميت بما افتتحت به من المقسم به، والقسم فى جميعها بواو القسم ، وهذه السور هى :(وَالصَّافَّاتِ) (وَالذَّارِيَاتِ) (وَالطُّورِ) (وَالنَّجْمِ) (وَالْمُرْسَلاتِ) (وَالنَّازِعَاتِ) (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ) (وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ) (وَالْفَجْرِ) (وَالشَّمْس) (وَاللَّيْلِ)(وَالضُّحَى)(وَالتِّينِ) (وَالْعَادِيَاتِ)(وَالْعَصْرِ)

وهناك سورتان اختلف العلماء فى تصنيفهما، منهم من جعلهما فى السور المفتتحة بالخبر ومن العلماء من جعلهما فى قسم السور المفتتحة بالقسم، وهما سورتا القيامة والبلد. وقد ذكرتهما من الافتتاح بالقسم نظرا لما ترجح لدى أثناء البحث أن تركيب (لا أقسم) هو من القسم. ولعل الذى جعل الكثير من العلماء لم يعدوهما من سور القسم أنهما لم تبدءا بواو القسم كما فى السور الخمس عشرة التى افتتحت بالقسم، أو بأى أداة من أدوات القسم المعروفة.

سادسا: الاستفتاح بالشرط : افتتح بالشرط سبع سور هى الواقعة، والمنافقون، والتكوير والانشقاق، والزلزلة، والنصر، والانفطار، وكلها افتتحت بإذا الشرطية.

سابعا: الاستفتاح بالأمر، وذلك في ست سور هى الجن، والعلق، والكافرون، والإخلاص والفلق، والناس.

ثامنا: الاستفتاح بالاستفهام، وذلك فى ست سور ـ أيضا ـ هى الإنسان، والنبأ، والغاشية، والشرح والفيل، والماعون.

تاسعا: الاستفتاح بالدعاء، وذلك في ثلاث سور هى : المطففين، والهمزة، والمسد.

عاشرا : الاستفتاح بالتعليل، وذلك في سورة واحدة هى سورة قريش.

وقد اشتمل كل نوع من هذه الأنواع على ما لا يقف عنده حد، وما لا يحيط به علم بشر من الأسرار شأنها شأن هذا الكتاب المعجز.

ولما كان الحديث عن أسرار فواتح السور السابقة مما لا يتيسر فى بحث واحد ؛ لأن الحديث عن هذه الأنواع العشرة يعنى الحديث عن القرآن الكريم كله. لذا فقد قصرت بحثى عن نوع واحد من هذه الأنواع، وهو الاستفتاح بالقسم الذى جاء فاتحة لسبع عشرة سورة، محاولا الكشف عن بعض ما تضمنه هذا النوع من أسرار وحكم وعبر وعظات.

الفصل الأول

القسم وما يتعلق به

تعريف القسم، أقسامه، أركانه، أغراضه وأهدافه.

تعريف القسم ومصطلحاته:

القسم واحد من أساليب التوكيد التى عرفها الناس منذ بدء الخليقة، وعرف وشاع عند العرب كما شاع عند غيرهم من الأمم.

ولهذا الضرب من التوكيد مصطلحات شاع إطلاقها عليه عند العلماء، كلفظ القسم، والحلف واليمين، وسمى عند البعض بالشهادة، والعهد، والنذر، والدعاء وغيرها من الألفاظ.(١)

إلا أننى سأقتصر على تعريف أكثر هذه المصطلحات شيوعا عند العلماء، وهى : القسم والحلف، واليمين.

أولا : القسم : فالقَسْم ــ بفتح فسكون ــ يدل على تجزئة الشئ.(٢) وهو مصدر قَسَمَ الشئ يَقْسِمُه جزّأه، والقِسْم ــ بالكسر ــ : النصيب والحظ، والجمع أقسام.(٣) وقسمه ــ بالتضعيف ــ : للتكثير، أي جزأه، ومنه قوله ــ تعالى ــ :(فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا).(٤)

وقاسم فلان فلانا أي : أخذ كل منهما قسمه. واقتسم القوم الشيء بينهم، أي : أخذ كل واحد منهم نصيبه منه. إلى غير ذلك من المشتقات التي ذكرتها كتب اللغة. وإلى هذا

---

(١) أسلوب القسم فى القرآن الكريم ــ دراسة بلاغية لعلى بن محمد الحارثى ٣/١ ط ١٤١١ه ــ ١٩٩١م

(٢) معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس، مادة : قسم ٨٦/٥ تحقيق عبد السلام محمد هارون ــ نشر الفكر ــ ط ١٣٩٩ه ــ ١٩٧٩م.

(٣) لسان العرب لابن منظور، مادة : قسم ٣٦١/٧ نشر دار الحديث ــ القاهرة.

(٤) سورة الذاريات، آية: ٤

الأصل يرجع أكثر ما ذكره اللغويون من معانى هذه المادة.[١]

والقَسَم ــ بالتحريك ــ اليمين[٢]. والجمع أقسام. ويستعمل منه الأفعال التالية:

١ــ أقسم بالله إقساما أي : حلف بالله حلفا..

٢ــ قاسمه : أقسم له، أو شاركه في القسم. ومنه قوله ــ تعالى ــ :(وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ).[٣]

٣ــ اقتسم : يقال : اقتسموا : تحالفوا، ومنه قوله تعالى : (كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ)[٤]، وهم الذين تقاسموا وتحالفوا على الكيد للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ، وقيل : هم الذين جعلوا القرآن عضين، آمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه الآخر.[٥]

٤ ــ تقاسم : يقال : تقاسم القوم، أي : تحالفوا، ومنه قوله ــ تعالى ــ (قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ)[٦] فهي بمعنى التحالف، أو طلب بعضهم القسم من بعض.

٥ــ استقسمه بالله : طلب منه أن يقسم به.

٦ــ والقَسَامَة: اليمين، يقال: قتل فلان فلانا بالقسامة، أى باليمين [٧]، وهى الأيمان التى تُقْسَمُ على الأولياء فى الدم.[٨] وهذا هو أصل تسمية القسم عند أكثر أهل اللغة. [٩] ثم صار اسما لكل حلف.[١٠]

---

(١) تهذيب اللغة للأزهرى، مادة: قسم ٤٢٠/٨ ط الدار المصرية للتأليف والترجمة، مختار الصحاح لمحمد بن أبى بكر عبد القادر الرازى، مادة: قسم ٥٦٠/١ تحقيق محمود خاطر ــ نشر مكتبة لبنان ناشرون ــ بيروت لسان العرب، مادة : قسم ٤٧٨/١٢

(٢) مختار الصحاح، مادة: قسم ٥٦٠/١، لسان العرب، مادة: قسم٣٦٣/٧

(٣) سورة الأعراف، آية :٢١

(٤) سورة الحجر، آية: ٩٠

(٥) الجامع لأحكام القرآن لأبى عبد الله القرطبى٥٨/١٠ نشر دار عالم الكتب ــ الرياض ــ المملكة العربية السعودية ــ ط ١٤٢٣ه ــ ٢٠٠٣م.

(٦) سورة النمل، آية:٤٩

(٧) تهذيب اللغة للأزهرى، مادة: قسم٤٢٣/٨

(٨) معجم مقاييس اللغة، مادة: قسم ٨٦/٥، المصباح المنير أحمد بن محمد بن على الفيومى، مادة: قسم ٥٠٣/٢ نشر المكتبة العلمية ــ بيروت.

(٩) مختار الصحاح، مادة : قسم ٥٦٠/١، المفردات للراغب الأصفانى ٢٤٢/٣ نشر دار القلم ــ دمشق

(١٠) المفردات ٢٤٢/٢

يقول الراغب: إن القسم بمعنى اليمين، أصله من القسامة، وهي أيمان تقسم على أولياء القتيل إذا ادعوا على رجل أنه قتل صاحبهم، ومعهم دليل دون البينة، فيحلفون خمسين يمينا تقسم عليهم، ثم صار اسما لكل حلف.(١) فكأنه (أي : القسم) كان في الأصل تقسيم أيمان، ثم صار يستعمل في نفس الحلف والأيمان.

فهو يرجع إلى أصل المادة الدال على قسمة الشئ وتجزئته، إذ لما كانت الأيمان فى القسامة تقسم على أولياء المقتول سميت كل يمين منها قسما، ثم أطلق الاسم على كل يمين وحلف.

وقال الواحدي : إنما سمى اليمين بالقسم ؛ لأن اليمين موضوعة لتوكيد الخبر الذي يخبر به الإنسان: إما مثبتاً للشيء، وإما نافياً. ولما كان الخبر يدخله الصدق والكذب احتاج المخبر إلى طريق به يتوسل إلى ترجيح جانب الصدق على جانب الكذب، وذلك هو الحلف ولما كانت الحاجة إلى ذكر الحلف، إنما تحصل عند انقسام الناس عند سماع ذلك الخبر إلى مصدق به ومكذب به. سموا الحلف بالقسم، وبنوا تلك الصيغة على ــ أفعل ــ فقالوا : أقسم فلان يقسم إقساماً : وأرادوا أنه أكد القسم الذي اختاره وأحال الصدق إلى القسم الذي اختاره بواسطة الحلف واليمين. (٢)

وعليه يكون قد سمى القسم قسما بما يكون من انقسام الناس عند سماع الخبر إلى مصدق ومكذب، فصار الحالف مؤكدا للقسم الذى اختار، ولذلك سمى الحلف قسما.

والعلاقة بين هذه المعانى قريبة، إذ ما جعل القسم إلا للفصل فى الخصومات، وما التجئ إليه إلا لتحديد الأنصباء، وإعطاء كل ذى حق حقه، وتوزيع الحظوظ.(٣)

---

(١) المفردات ٢/٢٤٢

(٢) مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين الرازى ١١٧/١٣ نشر دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط أولى ــ ١٤٢١هـ ــ ٢٠٠٠م

(٣) القاموس المحيط لمجد الدين الفيروز آبادى ١٦٥/٤ ط دار الحديث، أسلوب القسم واجتماعه مع الشرط لعلى أبى القاسم عون ص ٣١ــ٣٤ بتصرف منشورات جامع الفاتح ليبيا ١٩٩٢م. الكشف والبيان فى علوم القرآن د/ سمير عبد العزيز شليوه ص ٢٨١ وما بعدها مطبعة دار البيان ــ مصر.

ثانيا : الحلف.

الحلف فى اللغة: أصل الحلف فى اللغة ــ عند ابن فارس ــ الملازمة [١]. ومنه الحَلف والحِلف ــ بفتح الحاء وكسرها ــ لغتان ــ في القسم. فالحِلف ــ بكسر الحاء ــ : العهد يكون بين القوم، وقد حالفه : أي عاهده. وتحالف القوم : تعاهدوا، ويكون بمعنى آخى، وعليه ما جاء حديث أنس : (حَالَفَ رَسُولُ اللَّهِ ــ صلى الله عليه وسلم ــ بَيْنَ قُرَيْشٍ وَالأَنْصَارِ فِى دَارِهِ الَّتِى بِالْمَدِينَةِ)[٢] أي : آخى بينهم.

والحَلف ــ بفتح الحاء ــ: اليمين، يقال : حَلَفَ : أقسم، يحلف حَلْفا وحِلِفا ومَحْلوفا. ورجل حلاَّف وحَلاَّفة : كثير الحلف. قال ــ تعالى ــ : (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ)[٣]، وقال الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ : (مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَلْيَأْتِ الَّذِى هُوَ خَيْرٌ وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ)[٤] ومما سبق يتضح أن أكثر معانى هذه المادة ترجع إلى الأصل الذى ذكره ابن فارس وهو الملازمة. ومن الملازمة أطلق الحَلِفُ على القسم واليمين، وذلك أن الإنسان يلزمه الثبات على ما يحلف أو يقسم عليه.[٥]

وذهب الراغب إلى أن أصل ذلك اليمين التى يأخذ بعضهم من بعض بها العهد، ثم عبروا به عن كل يمين.[٦] فإطلاق ما يتعاهدون عليه ويتعاقدون بالحلف لما فيه من معنى الالتزام بما اتفقوا عليه.

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس، مادة: حلف، ٩٧/٢

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب : فضائل الصحابة، باب: مُؤَاخَاةِ النَّبِىِّ ــ صلى الله عليه وسلم ــ بَيْنَ أَصْحَابِهِ ــ رضى الله تعالى عنهم ــ ١٨٣/٧ صحيح مسلم لأبى الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى ــ نشر دار الجيل ــ بيروت + دار الآفاق الجديدة ــ بيروت.

(٣) سورة القلم، آية:١٠

(٤) أخرجه مسلم فى الصحيح، كتاب: الأيمان، باب : نَدْبِ مَنْ حَلَفَ يَمِينًا فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا أَنْ يَأْتِىَ الَّذِى هُوَ خَيْرٌ وَيُكَفِّرَ عَنْ يَمِينِهِ.٨٥/٥.

(٥) معجم مقاييس اللغة، ماد: حلف ٩٨/٢، أسلوب القسم فى القرآن دراسة بلاغية ١٢/١

(٦) المفردات ٢٥٧/١

ثالثا : اليمين.

اليمين فى اللغة لها معان عدة، منها يمين الإنسان، والقوة، والقدرة، والمنزلة، والدين.[١] ومن معانيها : الحَلِفُ والقَسَم، والجمع أَيْمُن وأيمان[٢]، واستَيْمَنْتُه : استَحْلَفْتُه[٣].

وسمى الحَلِفُ والقَسَمُ يمينا باسم يمين اليد ؛ وذلك أن العرب كانوا إذا حلفوا، أو تحالفوا وتعاقدوا وتبايعوا، يبسطون أيمانهم [٤]، أو يضرب كل منهم بيمينه على يمين صاحبه [٥]. فاليمين فى الحَلِف مستعار من اليد اعتبارا بما يفعله المعاهد والمحالِف وغيره.[٦] وقيل : سميت اليمين يمينا باسم اليد ؛ لأنها تحفظ الشئ كما تحفظ اليد[٧].

فكما أن القسم مما تحفظ به الحقوق ويكون به الإلزام، سمى يمينا باسم اليد التى يكون بها الحفظ.

الفرق بين القسم والحلف:

بالنظر إلى الاشتقاق اللغوى لكل من كلمتى القسم والحلف نجد أن هناك فرقا دقيقا بينهما:

فتجد أن العرب يقولون :(حلفة فاجر، وأحلوفة كاذبة)[٨] فكلمة الحلف جاءت فى القرآن بغير استثناء في الحنث باليمين. ولم تجئ مادة (حلف) إلا فى الآيات المدنية، ولم

---

(١) لسان العرب، مادة: يمن ٤٦٦/٩

(٢) الصحاح، مادة: يمن ٩١/٨، اللسان، مادة: يمن ٤٦٤/٩

(٣) المخصص لأبى الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيده ٧٤/٤ ــ تحقيق : خليل إبراهم جفال ــ نشر دار إحياء التراث العربي ــ بيروت ١٤١٧هـ ١٩٩٦م ــ الطبعة : الأولى.

(٤) تهذيب اللغة، مادة: يمن ٥٢٦/١٥، اللسان مادة: يمن ٤٦٨/٩

(٥) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية تأليف إسماعيل بن حماد الجوهري، يمن٩٠/٨ ــ تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ــ نشر دار العلم للملايين.

(٦) المفردات للراغب ٥٥١/٢

(٧) تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدى٣٧١/٩ــ٣٧٢ المطبعة الخيرية ــ مصر ــ ط أولى ــ ١٣٠٦ه ــ ١٩٥٩م، فتح البارى " شرح صحيح البخارى" للحفظ ابن حجر ٥٦/١١ مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده ــ مصر ــ ١٣٧٨ه ــ ١٩٥٩م.

(٨) أساس البلاغة للزمخشرى، مادة: حلف ١٨٥/١ تحقيق محمود محمد شاكر ــ مطبعة المدنى ــ القاهرة ــ مصر ــ ١٩٩١م.

ترد فى المكية إلا فى آية واحدة فى قوله ــ تعالى ــ (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ).[١]

ثم إن إسناد الفعل غالبا جاء في المنافقين، وحين أسند الفعل إلى المؤمنين في قوله ــ تعالى ــ : (ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ)[٢] كان ذلك لبيان كفارة الحلف عند الحنث.

فكلمة الحلف فى كل مواضع ورودها فى القرآن جاءت فى مقام الحنث باليمين. ومن هنا لم ترد مقترنة بالله.[٣]

قال الفراهى:[٤] ذكرنا أن القسم ربما يهين قدر المرء ويذهب بشرفه. فانظر كيف ينبه القرآن على هذا الأمر باستعماله كلمة الحلف فيمن يصغر نفسه بيمينه، ويلح حيث لا يلح شريف. فترى في سورة البراءة ذكر القسم من المنافقين في سبعة مواضع، فلم يأت به إلا بكلمة الحلف لدناءتهم وكذبهم في اعتذارهم. وما جاءت هذه الكلمة في سائر القرآن إلا حيث يشنع لما فيها من قلة المبالاة بشرف النفس والنزوع إلى ما يلقيها في الكذب والإلحاح.[٥]

وتقول بنت الشاطئ في تفسير سورة البلد : (فقد يبدو من السهل أن نفسر (أقسم) بلفظ (أحلف)، وليس في استعمال العرب لهما ما يمنع من تفسير أحدهما بالآخر، لكن استقراء الكلمتين في القرآن يمنع هذا الترادف ..... إلى أن تقول : وأمام هذا الاستعمال القرآني، لا يهون أن نفسر القسم بالحلف، وصنيع القرآن فيهما يلفت إلى فرق دقيق بين اللفظين المقول بترادفهما، فرق يؤيده فقه العربية، فاختلاف مادتي اللفظين

---

(١) سورة القلم، آية:١٠

(٢) سورة المائدة، آية:٨٩

(٣) أسلوب القسم الظاهر فى القرآن الكريم بلاغته وأغراضه د/ سامى عطا حسن ص ٧ــ٨ ــ موقع مكتبة صيد الفوائد http://www.saaid.net/book/index.php، القسم فى القرآن د/ حسين نصار ص٨٣ نشر مكتبة الثقافة الدينية ــ ط أولى ١٤٢١ه ــ ٢٠٠١م.

(٤) هو حميد الدين أبو أحمد عبد الحميد الأنصارى الفراهى، ولد سنة ١٢٨٠ه فى قرية(فَرِيها) من قرى مديرية (أعظم كره) الهند، وهو أحد العلماء المبرزين فى علوم القرآن والعربية، ظل مجهولا طيلة حياته، ولم يكتب عنه إلا بعد وفاته، وهى ترجمة من أحد تلاميذه، وألحقت هذه الترجمة فى مقدمات كتبه التى طبعت فيما بعد مثل : إمعان فى أقسام القرآن، والرأى الصحيح فى من هو الذبيح، وله تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان. توفى سنة ١٣٤٩ه. انظر مقدمة كتاب الرأى الصحيح فى من هو الذبيح لعبد الحميد الفراهى ص ٢١ وما بعدها نشر دار القلم ــ بيروت.

(٥) إمعان فى أقسام القرآن لعبد الحميد الفراهى ص٧٠ تعليق محمد سميع مفتى.

يؤذن باختلاف مدلول كل منهما، وبين حلف وحنث من القرب، ما ليس بين حلف وقسم، مما يبعد أن يكونا سواء).[١]

ومن الفرق بين القسم والحلف ما ذكره أبو هلال العسكرى : أن القسم أبلغ من الحلف، لأن معنى قولنا أقسم بالله أنه صار ذا قسم بالله، والقسم النصيب والمراد أن الذي أقسم عليه من المال وغيره قد أحرزه ودفع عنه الخصم بالله، والحلف من قولك سيف حليف أي قاطع ماض فإذا قلت حلف بالله فكأنك قلت قطع المخاصمة بالله فالأول أبلغ لأنه يتضمن معنى الآخر مع دفع الخصم ففيه معنيان وقولنا حلف يفيد معنى واحدا وهو قطع المخاصمة فقط وذلك أن من أحرز الشئ باستحقاق في الظاهر فلا خصومة بينه وبين أحد فيه وليس كل من دفع الخصومة في الشئ فقد أحرزه.[٢]

أنواع القسم

قسم العلماء القسم إلى نوعين : ظاهر، ومضمر:

١ــ القسم الظاهر: هو ما صرح فيه بفعل القسم، وصرح فيه بالمقسم به، ومنه ما حذف فيه فعل القسم كما هو الغالب اكتفاء بالأداة من الباء أو الواو أو التاء.

٢ــ القسم المضمر: هو ما لم يصرح فيه بفعل القسم ولا بالمقسم به، وإنما تدل عليه اللام المؤكدة التى تدخل على جواب القسم كقوله ــ تعالى ــ (لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ)[٣] أى والله لتبلون.[٤]

فالقسم الظاهر فى القرآن ما ظهرت فيه أركانه أو أغلبها، وهو الأعم الأغلب فى القرآن والمضمر ما دل عليه مضمون الكلام، وهو قليل فى القرآن.

---

(١) التفسير البيانى للقرآن الكريم د/ عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ ١٦٦/١ــ١٦٧ نشر دار المعارف

(٢) الفروق اللغوية لأبى هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى ص ٦٨ نشر دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان ــ ط أولى ــ ١٤٢١هـ ــ ٢٠٠٠م

(٣) سورة آل عمران، آية:١٨٦

(٤) مباحث فى علوم القرآن لمناع قطان ص٢٩٣ نشر مؤسسة الرسالة ــ ط الثانية والعشرون ــ ١٤١٠هـ ــ ١٩٩٠م

أركان القسم

يتألف أسلوب القسم من عدة أركان، فقال مناع قطان : أجزاء صيغة القسم ثلاثة:

١ــ الفعل الذى يتعدى بالباء ٢ــ والمقسم به ٣ــ والمقسم عليه. وهو يعد أول من نظر فى جملة القسم، وحاول تصنيف أجزاء القسم.(١)

ومن العلماء من ذهب إلى أن للقسم أربعة أركان:

الركن الأول : المقْسِم : وهو إما الله، وإما العباد. فالحلف عبارة عن فعل الفاعل المختار، فلا يصدر إلاّ منه سواء أكان واجباً كاللّه ــ سبحانه ــ أم ممكناً كالإنسان وغيره.

الركن الثاني : المقْسَم به : أي ما يحلف به، فلكلّ قوم أُمورا مقدّسة يحلفون بها، وأمّا القرآن الكريم فقد حلَفَ ــ سبحانه ــ بأُمور تجاوزت عن الأربعين مقسماً به.

فأقسم ــ سبحانه ــ بذاته المقدسة فى سبعة مواضع : فى قوله ــ تعالى ــ (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ)(٢)، وفى قوله (قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ)(٣)، وفى قوله(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)(٤)، وفى قوله(فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا)(٥)، وفى قوله(فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ)(٦)، وفى قوله(فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ)(٧)، وفى قوله(وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا. وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا. وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)(٨)

وأقسم ــ سبحانه ــ بمخلوقاته فى مواطن عديدة ؛ منها إقسامه بالشمس والقمر فى قوله ــ تعالى ــ (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا. وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا)(٩)، وبالليل والنهار فى قوله

---

(١) مباحث فى علوم القرآن لمناع قطان ص ٢٩٠، القسم فى القرآن الكريم د/ حسين نصار ص ١٣٤

(٢) سورة النساء، آية:٦٥

(٣) سورة يونس، آية:٥٣

(٤) سورة الحجر،آية:٩٢

(٥) سورة مريم، آية:٦٨

(٦) سورة الذاريات، آية : ٢٣

(٧) سورة المعارج، آية:٤٠

(٨) سورة الشمس، الآيات من ٥ــ٧

(٩) سورة الشمس، الآيتان:١ــ٢

تعالى ــ (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى)[١] وأقسم ــ سبحانه ــ بالتين والزيتون وبالطور وبالبلد الأمين ــ مكة ــ وبالفجر وليال عشر إلى غير ذلك.

فإن قيل : كيف أقسم الله بمخلوقاته مع أننا قد نهينا شرعا عن الحلف إلا بالله ؟

والجواب: أننا نهينا عن الحلف بالمخلوقات خشية تعظيمها ؛ إذ نحن مطالبون بتعظيم الله فقط، وأما الله ــ تعالى ــ، فله أن يقسم بها ؛ لأنها مخلوقاته وجانب تعظيمها مؤتمن بالنسبة له.[٢]

الركن الثالث: جواب القسم أو المقسم عليه : أي ما يحلف عليه، والمراد هو جواب القسم الذي يراد توكيده، أو تعظيمه، أو التنبيه على ما فيه من عظات وعبر، ونفع وضر.

وقد أقسم الله ــ جل شأنه ــ فى كتابه على أمور كثيرة ترجع فى جملتها إلى أمرين:

الأول : أصول الإيمان.

والثانى: حال الإنسان.[٣]

قال ابن القيم ــ رحمه الله ــ فى كتاب التبيان: فهو ــ سبحانه ــ يقسم على أصول الإيمان التي يجب على الخلق معرفتها، فتارة يقسم على التوحيد، وتارة يقسم على أن القرآن حق، وتارة على أن الرسول حق، وتارة على الجزاء والوعد والوعيد، وتارة على حال الإنسان.

فأقسم على التوحيد فى قوله تعالى : (وَالصَّافَّاتِ صَفًّا. فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا. فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا. إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ).[٤]

وأقسم على أن القرآن حق فى قوله ــ تعالى ــ: (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ. وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ).[٥]

---

(١) سورة الليل، الآيتان ١ــ٢

(٢) مفاتيح التفسير" معجم شامل لما يهم المفسر معرفته من أصول التفسير وقواعده ومهاماته " أ د أحمد سعد الخطيب ٦٧٢/٢ نشر دار التدمرية ــ الرياض ــ المملكة العربية السعودية ــ ط أولى ــ ١٤٣١هـ ــ ٢٠١٠م.

(٣) دراسات فى علوم القرآن أ د/ محمد بكر إسماعيل ص ٣٦٦ نشر دار المنار ــ ط أولى.

(٤) سورة الصافات، الآيات من ١ــ٤

(٥) سورة الواقعة، الآيتان ٧٥ــ٧٦

وعلى أن الرسول حق فى قوله ــ تعالى ــ : (يس. وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ. إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ).(١)

وقوله (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى. مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى. وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى).(٢)

وعلى الجزاء والوعد والوعيد كقوله ــ تعالى ــ (وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا. فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا. فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا. إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ. وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ).(٣)

وقوله (وَالطُّورِ. وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ. فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ. وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ. وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ. وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ. إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ. مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ).(٤)

وعلى حال الإنسان، كقوله ــ تعالى ــ: (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى. وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى. وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى. إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى).(٥)

وأقسم على صفة الإنسان بقوله (وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا. فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا. فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا. فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا. فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا. إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ).(٦)

وأقسم على عاقبته وهو قسم على الجزاء فى قوله (وَالْعَصْرِ. إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ).(٧)

وفى قوله (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ. وَطُورِ سِينِينَ. وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ. لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ. ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ).(٨)

الركن الرابع : أدوات القسم :

فللقسم أدوات منها : (الباء، والواو، والتاء، واللام، ومن) ولم ترد (اللام)، أو (من) للقسم في القرآن الكريم. قال سيبويه :(وللقسم والمقسم به أدوات في حروف

---

(١) سورة يس، الآيات من ١ــ٣

(٢) سورة النجم، الآيات ١ــ٣

(٣) سورة الذاريات، الآيات من ١ــ٦

(٤) سورة الطور، الآيات من ١ــ٨

(٥) سورة الليل، الآيات من ١ــ٤

(٦) سورة العاديات، الآيات من ١ــ٦

(٧) سورة العصر

(٨) سورة التين، الآيات من ١ــ٦

الجر، وأكثرها الواو، ثم الباء، يدخلان على كل محلوف به،..الخ).[١]

أما الباء فهي الأصل في أدوات القسم، ولهذا خص بأحكام منها :

١ــ جواز إثبات فعل القسم وفاعله معها، كقوله ــ تعالى ــ: (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ.. الآية)[٢] أو حذفهما، كما في قوله ــ تعالى ــ: (قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ).[٣]

٢ــ دخولها على المظهر والمضمر، ولا يدخل من حروف القسم غيرها على المضمر، ومن شواهد دخولها على الاسم الظاهر، قوله ــ تعالى ــ: (قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ.. الآية)[٤] أما دخولها على المضمر فلا دليل له في القرآن الكريم، وهو كقولك : (أقسم به إني لصادق)

٣ــ تستعمل في القسم الاستعطافي مثل : بالله هل قام زيد؟ أى أسألك بالله مستحلفا.[٥]

أما واو القسم، فلا تدخل إلا على مظهر، ولا تتعلق إلا بمحذوف يقدر بنحو (أقسم، أو أحلف)، مثل قوله ــ تعالى ــ : (وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ)[٦] فإن تلتها واو أخرى، نحو :(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ)[٧] فالتالية هي واو العطف.

قال ابن هشام فى المغنى: إن تلتها واو أخرى نحو قوله ــ تعالى ــ(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ) فالتالية واو العطف، وإلا لاحتاج كل من الاسمين إلى جواب.[٨]

والقسم بالواو فى القرآن أكثر من القسم بالباء والتاء.

---

(١) الكتاب لسيبويه ٤٩٦/٣ وما بعدها ــ تحقيق عبد السلام محمد هارون ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٢) سورة النحل، الآية:٣٨

(٣) سورة الأعراف، آية :١٦

(٤) سورة النمل، آية:٤٩

(٥) مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصارى ١٤٣/١ تحقيق د/مازن المبارك، ومحمد على حمد الله ــ نشر دار الفكر ــ بيروت ــ ط سادسة.

(٦) سورة يس، آية :٢

(٧) سورة التين، آية:١

(٨) مغنى اللبيب لابن هشام ٤٧٣/٤

أما التاء فإنه يختص باسم الله ــ تعالى ــ مثل قوله ــ تعالى ــ: (وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ).[١]

أغراض القسم القرآني، وأهدافه :

إن الله ــ تعالى ــ لا يقسم بشئ إلا لعبرة وموعظة وحكم وفوائد تتعلق بالقسم والمقسم به والمقسم عليه، وعليه فقد تنوعت أغراض القسم فى القرآن الكريم وتعددت، منها ما استطاع من تأمل هذه الأقسام أن يلحظ العبرة فيها، ومنها ما يزال لا نعلمه لما انطوى عليه من الأسرار والحكم العالية.

يقول الأستاذ الدكتور محمد بكر إسماعيل ــ رحمه الله ــ : وللقسم فى القرآن الكريم مقاصد كثيرة ، وفى طياته مواطن للعظة والعبرة ومجالات رحبة للتأمل والنظر، ولطائف خفية يكتشفها المؤمن بنور بصيرته، فيزداد بها يقينا، يسمو به إلى مراتب العارفين بربهم ــ جل جلاله ــ.[٢]

ومن هذه الأغراض التى استطاع أن يستنبطها العلماء من القسم القرآنى:

١ــ تأكيد الخبر وتقريره، وتلك عادة العرب الذين كانوا يقطعون كلامهم بالقسم، لأن (القصد بالقسم تحقيق الخبر وتوكيده)[٣]. وهذا الغرض يظهر لنا إذا علمنا أن المقسم عليه كثيرا ما يكون من الأمور الخفية الغائبة، فيقسم عليها لإثباتها، مثل قوله ــ تعالى ــ : (لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ. أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ. بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ)[٤] فالقسم فى كلام الله (يزيل الشكوك، ويحبط الشبهات، ويقيم الحجة، ويؤكد الأخبار، ويقرر الحكم في أكمل صورة).[٥]

٢ــ تعظيم المُقْسَم به والتهويل من شأنه، وبيان شرف ما أقسم الله ــ تعالى ــ به، وإظهار مكانته.

قال ابن القيم ــ رحمه الله ــ: أن يقسم الله فى كلامه بشئ لم يُرد به تأكيد كلامه ولا تصديقه وإنما يُريد به بيان شرف المُقسَم به وعلو قدره عنده. ومنه قوله ــ تعالى ــ

---

(١) سورة الأنبياء، آية:٥٧

(٢) دراسات فى علوم القرآن أ د / محمد بكر إسماعيل ص ٣٦٣

(٣) الإتقان فى علوم القرآن لجلال الدين السيوطى٢/١٣٣

(٤) سورة القيامة، الآيات من ١ــ ٤

(٥) مباحث فى علوم القرآن لمناع قطان ص٢٩١، أسلوب القسم الظاهر فى القرآن الكريم ص ٣٢

(فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ)[١]، وقوله ــ تعالى ــ(وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا. وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا. وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)[٢]، وقوله ــ تعالى ــ (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)[٣] أقسم بهذه الأشياء كلها لعظم خلقها ولشرفها عنده، وأقسم بحياة النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليعرف الناس عظمته عنده ومكانته لديه.[٤]

٣ــ لفت الأنظار إلى الكون وما يحويه من أسرار عجيبة [٥]، وما فيه من نظام بديع محكم، إذ كل يجري إلى أجل مسمى، وكل في فلك يسبحون، فجاء القسم في القرآن الكريم على هذه الأمور لأجل ذلك.[٦]

٤ــ إثبات صدق الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ إذ العرب كانت تعتقد أن الأيمان الكاذبة تدع الديار بلاقع [٧]، وأنها تضر صاحبها. ولكن مع قسمه ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم يصب بسوء ما، بل ارتفع شأنه وعلا ذكره ــ صلى الله عليه وسلم ــ، فكان دليلا على صدقه.[٨]

٥ــ إبراز المعقول في صورة المحسوس، وذلك أن الأمر المعقول إذا صور في شيء حسي فإن العقل يستوعبه، أكثر ما لو كان مجردا عن الحس، ومثله تشبيه الوحي بالضحى في رابعة النهار، وتشبيه الباطل بالليل، وانتصار الحق بالنهار، إشارة إلى أن الليل البهيم، لابد وأن يعقبه صبح مشرق بهيج، يبدد ظلامه وظلماته، وكذلك ظلام الشرك والجهل، لابد وأن يعقبه نور الحق واليقين.

٦ــ تصحيح العقائد الباطلة، فالقسم بالنجم إذا هوى، وبالكواكب، وبالشمس، والقمر، فيه رد على من اعتقد أنها آلهة، وأن لها تصرفا في العالم السفلي.[٩]

---

(١) سورة الذاريات، الآية :٢٣

(٢) سورة الشمس، الآيات من ٥ــ٧

(٣) سورة الحجر، الآية :٧٢

(٤) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن لابن القيم ص ١١٦ــ١١٧ ط مكتبة المتنبى ــ القاهرة

(٥) أسلوب القسم الظاهر فى القرآن الكريم ص ٣٢ نقلا عن لغة القرآن الكريم لـ د/عبد الجليل عبد الرحيم ص ٢٦٧

(٦) أسلوب القسم الظاهر فى القرآن الكريم ص٣٢

(٧) بلاقع : أى خرابا خالية. لسان العرب، مادة: بلقع ٥٠١/١

(٨) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازى ٣٦/٢٦

(٩) أسلوب القسم الظاهر فى القرآن الكريم ص ٣٣

أهم المؤلفات فى القسم القرآنى

لم يتناول هذا الموضوع (القسم فى القرآن) بالبحث المستقل من العلماء القدامى إلا الإمام العلامة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر المعروف بابن قيم الجوزيه، وذلك فى كتابه القيم : التبيان فى أقسام القرآن، وقد قسَّم هذا الكتاب إلى واحد وخمسين ومائة فصلا، وهو كتاب لا يستغنى عنه مفسر أو باحث فى القَسَم القرآنى.

وأفرده بالتصنيف من العلماء المتأخرين عبد الحميد الفراهى، عالم الهند المتوفى سنة ١٣٤٩ه فى كتابه (إمعان فى أقسام القرآن).

ومن الكتب المؤلفة فى القسم القرآنى : القسم فى اللغة وفى القرآن لمحمد المختار السَّلامى مفتى الجمهورية التونسية سابقا. والقسم فى القرآن الكريم للدكتور حسين نصار عميد كلية الآداب ــ جامعة القاهرة سابقا.

ومن الرسائل العلمية التى تناولت هذا الموضوع :

١ــ آيات القسم فى القرآن لأحمد كمال المهدى ــ رسالة ماجستير بكلية أصول الدين ــ جامعة الأزهر سنة ١٣٨٨ه وهى فى تخصص التفسير.

٢ــ أساليب القسم والشرط فى القرآن الكريم لأحمد عبد العزيز اللهيب ــ رسالة دكتوراه محفوظة بكلية اللغة العربية ــ جامعة الأزهر ــ سنة ١٣٩٥ه وهى فى النحو

٣ــ أسلوب القسم فى القرآن الكريم لعواطف يوسف الزبيدى ــ رسالة ماجستر بكلية اللغة العربية ــ جامعة الأزهر ــ بدون تاريخ، وهى فى النحو.

٢ــ القسم فى القرآن الكريم لخالد سيفى ــ رسالة ماجستير ــ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية ــ جامعة أم القرى سنة ١٤٠٢ ــ ١٤٠٣ ه. فى التفسير

٣ ــ أسلوب القسم فى القرآن الكريم دراسة بلاغية لعلى بن محمد بن عبد المحسن الحارثى ــ رسالة ماجستير ــ جامعة أم القرى سنة ١٤١١ ه وهو مرجعى فى ذكر الرسائل العلمية السابقة التى تناولت القسم فى القرآن الكريم. (١)

---

(١) ــ أسلوب القسم فى القرآن الكريم دراسة بلاغية ١/ج فى الحاشية.

الفصل الثاني

السور المفتتحة بالقسم

وما اشتملت عليه من أسرار وعبر

المبحث الأول : الأسرار والعبر فى الاستفتاح بالقسم فى أول سورة الصافات

افتتحت سورة الصافات بالقسم الإلهى بالصافات وهم الملائكة فى قوله ــ تعالى ــ (والصافات صفا) فقد ذهب أكثر أهل العلم على أن المراد بـ: (الصَّافَّاتِ) هنا، و(الزَّاجِرَاتِ)، و(التَّالِيَاتِ): جماعات الملائكة.

ومعنى قوله ــ تعالى ــ (والصافات) هى الملائكة الذين يصفون للعبادة في السماء ويتراصون في الصف.

ومعنى كونهم صافين: أن يكونوا صفوفًا متراصّين بعضهم جنب بعض في طاعة اللَّه ــ تعالى ــ من صلاة وغيرها. وقيل: لأنهم يصفون أجنحتهم في السماء، ينتظرون أمر اللَّه، ويؤيّد القول الأول ما جاء فى وصف الملائكة بأنهم صافّون، وذلك في قوله ــ تعالى ــ عنهم: (وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ. وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ)[١]، كما جاء وصفهم بذلك فيما رواه مسلم فى صحيحه عن حذيفة قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ: " فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا، وَجُعِلَتْ تُرْبَتُهَا لَنَا طَهُورًا إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ [٢]، وهو دليل صحيح على أن الملائكة يصفّون كصفوف المصلّين في صلاتهم.[٣]

---

(١) سورة الصافات، الآيتان : ١٦٥ــ١٦٦

(٢) صحيح مسلم ــ كتاب المساجد ٦٣/٢

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي ٣٠١/٦ ــ نشر : دار الفكر للطباعة والنشر ــ بيروت ١٤١٥هـ ــ ١٩٩٥م

(والزاجرات) هي الملائكة تزجر السحاب يسوقونه إلي حيث شاء الله، من الزجر بمعني السوق والحث.[١]

(والتاليات ذكرا) معناه القارئات قال مجاهد أراد الملائكة التي تتلو ذكره.[٢]

وقد جاء وصفهم بما يدل على أنهم يلقون الذكر على غيرهم من الأنبياء، لأجل الإعذار والإنذار به. كما فى قوله ــ تعالى ــ فى أوائل المرسلات : (فالملقيات ذِكْراً. عُذْراً أَوْ نُذْراً)[٣] قال الإمام ابن كثير : قوله : (فالتاليات ذِكْراً) هم الملائكة يجيئون بالكتاب والقرآن من عند الله إلى الناس، وهذه الآية كقوله ــ تعالى ــ: (فالملقيات ذِكْراً. عُذْراً أَوْ نُذْراً).[٤]

هذا بالنسبة للمراد من معنى الصافات والزاجرات والتاليات، وقد اقتصرت على الراجح من أقوال العلماء فى معانى هذه الآيات، أما الحكم والأسرار الذى تضمنه القسم بهذه المخلوقات، فيتبين لنا من أن الله ــ تعالى ــ افتتح هذه السورة بالقسم بهذه المخلوقات إظهارا لعظم شأنها، وكبر فوائدها وتنبيها على جلالة قدرها.[٥]

وقد أشار إلى هذا الفخر الرازى فى تفسيره ونص كلامه: الحكمة في قسم الله ــ تعالى ــ بهذه الأشياء التنبيه على شرف ذواتها وكمال حقائقها، لا سيما إذا حملنا هذه الألفاظ على الملائكة فإنه تكون الحكمة في القسم بها التنبيه على جلالة درجاتها وكمال مراتبها.[٦]

وقد جاء القسم بالصافات والزاجرات والتاليات ــ وهى الملائكة ــ مناسبا لجوابه وهو قوله ــ تعالى ــ (إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ)[٧] حيث كانت فاتحتها مناسبة لأغراضها بأن

---

(١) معالم التنزيل للحسين بن مسعود البغوى ٣٣/٧ نشر دار طيبة ــ ط رابعة ــ ١٤١٧ه، صفوة التفاسير لمحمد على الصابونى ص ٢٨ نشر دار الصابونى ــ ط تاسعة.

(٢) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسى ٣٣٧/٧ ــ تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ــ الشيخ علي محمد معوض ــ نشر/ دار الكتب العلمية.

(٣) سورة المرسلات، الآيتان:٥ــ٦

(٤) تفسير القرآن العظيم لأبى الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي ٦/٧ ــ تحقيق سامي بن محمد سلامة ــ نشر دار طيبة ــ الطبعة : الثانية ١٤٢٠هـ ــ ١٩٩٩ م.

(٥) صفوة التفاسير لمحمد على الصابونى٢٨/٣

(٦) مفاتيح الغيب للرازى١٠٣/٢٦

(٧) الجامع لأحكام القرآن لأبى عبد الله القرطبى ٦١/١٥

القَسَم بالملائكة مناسب لإثبات الوحدانية ؛ لأن الأصنام لم يدَّعوا لها ملائكة، والذي تخدمه الملائكة هو الإله الحق ولأن الملائكة من جملة المخلوقات الدالِّ خلقُها على عظم الخالق، ويؤذن القَسم بأنها أشرف المخلوقات العلوية.(١)

فالقسم بالملائكة فى هذه السورة جاء مناسبا لأغراض السورة من الاستدلال بها على وحدانية الله ــ تعالى ــ، إذ إن الملائكة وهى أشرف المخلوقات العلوية والتى عبدت من دون الله ــ تعالى ــ مع تبرئها من هذا كما حكى القرآن الكريم فى قوله ــ تعالى ــ (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ)(٢) فإنها تعبد الله وتوحده وتكون فى خدمته وتنفيذ أوامره، وهى لا تستنكف عن عبادة الله ــ تعالى ــ (لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا)(٣).

((ثم إن الصفات التي لوحظت في القَسَم بها مناسبة للأغراض المذكورة بعدها، فـ الصافات يناسب عظمة ربها، و الزاجرات يناسب قَذف الشياطين عن السماوات، ويناسب تسيير الكواكب وحفظها من أن يدرك بعضُها بعضاً، ويناسب زجرها الناس في المحشر. والتاليات ذكرا يناسب أحوال الرسول والرسل ــ عليهم الصلاة والسلام ــ وما أرسلوا به إلى أقوامهم).(٤)

كما جاء القسم من الله ــ سبحانه ــ بطوائف من الملائكة فى السورة على وحدانيته وربوبيته لنفى ما زعمه المشركون من وجود صلة نسبية بينه وبينهم فقال(وَالصَّافَّاتِ صَفًّا. فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا. فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا)

فقد زعموا أن الملائكة بنات الله، وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا. فأقسم بهم لبيان وظائفهم وتحديد مكانهم، وإثبات كماله فى ذاته، وبيان أنه الواحد الأحد رب السماوات والأرض وما بينهما.

---

(١) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشو٨٢/٢٣ نشر دار سحنون ــ تونس ــ ١٩٩٧م

(٢) سورة سبأ، الآيتان : ٤٠ــ٤١

(٣) سورة النساء، آية:١٧٢

(٤) التحرير والتنوير ر٨٢/٢٣ــ٨٣

فلو جئ بمقسم به آخر غير الملائكة، فقيل مثلا: والذاريات ذروا، أو قيل : والنجم إذا هوى لاختل نظم الكلام، ونسق المعانى، ولذهب وجه فريد من وجوه الإعجاز البيانى.(١)

فهذا وجه يظهر قوة الصلة والترابط بين ما جاء فى أول السورة وما جاء فى آخرها، فما جاء فى أول السورة من القسم بالصافات والزاجرات والتاليات وهى الملائكة مناسب جدا لما جاء فى آخرها من نفى وجود صلة نسبية بين الله ــ تعالى ــ وبين الملائكة ــ على حد ما زعمه المشركون ــ فى قوله ــ تعالى ــ (وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ. سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ).(٢)

قال الفخر الرازى : فإن قيل : ذكر الحلف في هذا الموضع غير لائق وبيانه من وجوه الأول : أن المقصود من هذا القسم إما إثبات هذا المطلوب عند المؤمن أو عند الكافر والأول باطل لأن المؤمن مقر به سواء حصل الحلف أو لم يحصل، فهذا الحلف عديم الفائدة على كل التقديرات.

الثاني : أنه ــ تعالى ــ حلف في أول هذه السورة على أن الإله واحد، وحلف في أول سورة والذاريات على أن القيامة حق فقال : (والذاريات ذَرْواً) إلى قوله : (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لصادق. وَإِنَّ الدين لَوَاقِعٌ)(٣).

وإثبات هذه المطالب العالية الشريفة على المخالفين من الدهرية وأمثالهم بالحلف واليمين لا يليق بالعقلاء.

والجواب من وجوه الأول : أنه ــ تعالى ــ قرر التوحيد وصحة البعث والقيامة في سائر السور بالدلائل اليقينية، فلما تقدم ذكر تلك الدلائل لم يبعد تقريرها فذكر القسم تأكيداً لما تقدم لا سيما والقرآن إنما أنزل بلغة العرب وإثبات المطالب بالحلف واليمين طريقة مألوفة عند العرب والوجه الثاني في الجواب : أنه ــ تعالى ــ لما أقسم بهذه الأشياء على صحة قوله تعالى : (إِنَّ إلهكم لَوَاحِدٌ) ذكر عقيبه ما هو كالدليل اليقيني في كون الإله واحداً، وهو قوله ــ

---

(١) دراسات فى علوم القرآن للأستاذ الدكتور محمد بكر إسماعيل ص ٣٧٣ــ٣٧٤، القسم فى القرآن الكريم د/ حسين نصار ص ١١٢

(٢) سورة الصافات، آية: ١٥٨

(٣) سورة الذاريات، الآيات من ١ــ ٦

تعالى ــ :(رَبّ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ المشارق)[١] وذلك لأنه ــ تعالى ــ بين في قوله :(لَوْ كَانَ فِيهِمَا الِهَةٌ إلاَّ الله لَفَسَدَتَا)[٢] أن انتظام أحوال السموات والأرض يدل على أن الإله واحد فههنا لما قال :(إنَّ إلهكم لَوَاحِدٌ) أردفه بقوله:(رَبّ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ المشارق) كأنه قيل قد بينا أن النظر في انتظام هذا العالم دل على كون الإله واحداً فتأملوا في ذلك الدليل ليحصل لكم العلم بالتوحيد.

الوجه الثالث : في الجواب أن المقصود من هذا الكلام الرد على عبدة الأصنام في قولهم بأنها آلهة فكأنه قيل هذا المذهب قد بلغ في السقوط والركاكة إلى حيث يكفي في إبطاله مثل هذه الحجة.[٣]

المبحث الثانى: الأسرار والعبر فى الاستفتاح بالقسم فى أول سورة الذاريات

أقسم الله ــ تعالى ــ فى أول سورة الذاريات فى قوله ــ تعالى ــ (وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا. فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا. فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا.فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا) بأربعة أشياء، وقد اختلف العلماء فى معانى هذه الأشياء المقسم بها، وأشهر ما رُوي فى ذلك :

أن الذاريات : الرياح لأنها تذرو التراب، و (الحاملات وِقْراً) : السحاب، و (الجاريات) : السفن، و(المُقسِّمات أمراً) الملائكة.

فالمراد بالذاريات الرياح ، لأنها تذرو التراب والحشيش وغير ذلك، ويدل عليه أن الذرو صفة مشهورة من صفات الرياح. ومنه قوله ــ تعالى ــ: (فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ)[٤]، ومعنى (تَذْرُوهُ): ترفعه وتفرقه، فهي تذرو التراب والمطر وغيرهما.[٥]

فَالْحَامِلاتِ وِقْراً : السحاب الحاملة للأمطار.[٦]

---

(١) سورة الصافات، آية : ٥

(٢) سورة الأنبياء، آية : ٢٢

(٣) مفاتيح الغيب للرازى ٢٦/١٠٣ــ١٠٤

(٤) سورة الكهف، آية:٤٥

(٥) أضواء البيان ٧/٤٣٤

(٦) البحر المديد لأحمد بن محمد بن المهدى بن عجيبة المعروف بابن عجيبة ٧/٢٨٩ نشر دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط ثانية ــ ١٤٢٣ه

ويدل لهذا القول تصريح الله ــ جل وعلا ــ بوصف السحاب بالثقال، وهو جمع ثقيلة، وذلك لثقل السحابة بوقر الماء الذي تحمله كقوله ــ تعالى ــ: (وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ)[١]، وهو جمع سحابة ثقيلة، وقوله ــ تعالى ــ: (حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ)[٢].

(فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً) السفن تجري في البحر يسرا أي جريا ذا يسر أي سهولة.[٣]

ويدل لهذا القول كثرة إطلاق الوصف بالجري على السفن كقوله ــ تعالى ــ: (وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ)[٤]، وقوله: (إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ)[٥]، وقوله تعالى: (وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ)[٦] وقوله ــ تعالى ــ: (اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ)[٧] إلى غير ذلك من الآيات.

(فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً) هي الملائكة يرسلها الله في شؤون وأمور مختلفة، ولذا عبر عنها بالمقسمات، ويدل لهذا قوله ــ تعالى ــ: (فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً) فمنهم من يرسل لتسخير المطر والريح، ومنهم من يرسل لكتابة الأعمال، ومنهم من يرسل لقبض الأرواح، ومنهم من يرسل لإهلاك الأمم، كما وقع لقوم صالح.[٨]

وهذا القول هو الأولى ؛ لأنه ثابت عن بعض الصحابة، ولأن كون هذه الألفاظ الأربعة لها معان مختلفة، أدل على قدرة الله ــ تعالى ــ وعلى فضله على عباده.[٩]

والقَسَم المفتتح به هذه السورة مراد منه تحقيق المقسم عليه وتأكيد وقوعه[١٠]، وهو ما وعد الله ــ تعالى ــ به من وقوع البعث والجزاء على الأعمال. وفى القسم بما

---

(١) سورة الرعد، آية : ١٢

(٢) سورة الأعراف، آية:٥٧

(٣) تفسير الكشاف للزمخشرى ٣٩٨/٤ــ تحقيق : عبد الرزاق المهدي ــ دار إحياء التراث العربي ــ بيروت

(٤) سورة الشورى، آية:٣٢

(٥) سورة الحاقة، آية :١١

(٦) سورة الحج، آية : ٦٥

(٧) سورة الجاثية، آية:١٢

(٨) تفسير الكشاف ٣٩٨/٤، أضواء البيان ٤٣٥/٧

(٩) التفسير الوسيط أ د/ محمد سيد طنطاوى ٩/١٤ مطبعة السعادة ــ مصر.

(١٠) التحرير والتنوير ٣٣٦/٢٦

ذكره الله ــ تعالى ــ فى أول السورة ما يدل على عظمة هذه المخلوقات وعلى عظمة وقدرة خالقها وحكمته، كما فيه تذكير بنعمة الله فيما أوجد فيها.

وتظهر المناسبة فيه بين المقسم به والمقسم عليه من الكلام الآتى بيانه :

فقد أقسم الله ــ جل شأنه ــ بأمور أربعة على أن ما نوعد به من البعث، وأمر الساعة حق وعلى أن الدين وهو الجزاء، من ثواب أو عقاب، واقع لا محالة، فهو قسم على البعث وعلى الجزاء.

فالمقسم عليه: صدق الموعود من البعث والنشور، ووقوع الحساب، فالثواب أو العقاب. والمناسبة بين المقسم به، والمقسم عليه واضحة، فالقادر على تأليف السحاب من ذرات البخار، بواسطة الرياح الذارية، ثم إعادته بعد ذلك إلى سيرته الأولى، قادر على إعادة الإنسان، وتأليف أجزائه المتفرقة.

قال الإمام البيضاوي : كأنه استدل باقتداره على هذه الأشياء العجيبة المخالفة لمقتضى الطبيعة على اقتداره على البعث.(١)

وقال البقاعى: افتتح هذه بالقسم البالغ على صدقه، فقال مناسباً بين القسم والمقسم عليه :

(والذاريات) أي الرياح التي من شأنها الإطارة والرمي والتفريق والإذهاب....ولما كانت غاية الذرو التهيئة للحمل، قال مسبباً ومعقباً :(فالحاملات) أي من السحب التي فرقت الريح أصلها وهو الأبخرة، وأطارته في الجو في جهة العلو ثم جمعته، فانعقد سحاباً فبسطه مع الالتئام فحمله الله ما أوجد فيه من مراده من الماء والصواعق وغيرها.

ولما كان الحمل إنما هو الوضع في الأماكن التي يراد ضرها أو نفعها، وكان سير الغمام بعد الحمل في ساحة الجو وباحة الأفق من غير ممسك يرى أدل على القدرة، ولا سيما إذا كان مع الجري الذي يضرب به لسرعته المثل، وكذا جري السفن في باحة البحر بعد ثقلها بالوسق قال : (فالجاريات يسراً) أي جرياً ذا سهولة.

ولما كان في غاية الدلالة على تمام القدرة بغريق محمولها في الأراضي المجتاحة ولا سيما إن تباعدت أماكن صبه ومواطن سكبه، وكان ذلك التفريق هو غاية الجري المترتب

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوى٥/٢٣٥ نشر دار الفكر ــ بيروت.

على الحمل المترتب على الذرو، قال مسبباً معقباً مشيراً بالتفعيل، إلى غرابة فصلها لقطراتها وبداعة تفريقها لرحمتها من عذابها، وغير ذلك من أحوال الجاريات وتصريف السواريات : (فالمقسمات) أي من السحب بما تصرفها فيه الملائكة ــ عليهم السلام ــ، وكذا السفن بما يصرفها الله به من الرياح اللينة أو العاصبة من سلامة وعطب وسرعة وإبطاء، وكذا غيرهما من كل أمر تصرفه الملائكة بين العباد وتقسمه.

ولما كان أجل وعيدهم وما يتعلق بالجزاء يوم القيامة وكانوا ينكرونه، قال : (وإن الدين) أي المجازاة لكل أحد بما كسب يوم البعث، والشرع الذي أرسلت به هذا النبي الكريم (لواقع) لا بد منه وإن أنكرتم ذلك، فيظهر دينه على الدين كله كما وعد بذلكن ثم نقيم الناس كلهم للحساب.[١]

فهذه الأمور التى ذكرت فى السورة فيها إشارة إلى قدرة الله ــ تعالى ــ على إعادة الأجساد وبعثها بعد الموت أينما كانت، لأن من الأجزاء ما هو فى جوف الأرض، ومنها ما كان هلاكها فى بطن البحار، ومنها ما هو فى جو الهواء، ثم هى فى حاجة إلى من ينفخ فيها الروح من جديد. فذكر الله ــ تعالى ــ فى هذه الآيات أربع أشياء مما يدل على قدرته تتناسب مع ما جاء فى هذه الأقسام الهالكة، فذكر الذاريات التى تجمع الذرات من الأرض، وهذا مناسب لما هو فى جوف الأرض. وذكر الحاملات التى يناسب ما تحمله للمتفرق فى الجو، وذكر ما يذكر بقدرته ــ تعالى ــ على تسيير الجاريات الثقيلة لما هو هالك فى قعر البحار. وإذا اجتمع كل هذه الأجزاء المتفرقة على اختلاف أماكنها الهالكة فيها بقى أمر الله ــ تعالى ــ للملائكة المقسمات بنفخ الروح فى هذه الأجساد لتجتمع لموقف الحساب والجزاء الذى أقسم الله ــ تعالى ــ عليه بقوله (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ. وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ).

قال الرازى : يحتمل أن يقال :هذه أمور أربعة ذكرت لأمور أربعة بها تتم الإعادة، لأن الأجزاء المتفرقة بعضها في تُخُوم الأرض، وبعضها في قَعْر البِحَار، وبعضها في جَوِّ الهواء وفي الأجزاء البخارية اللطيفة المنفصلة عن الأبدان. فالذاريات هي التي تجمع الذرات من الأرض وتَذْرُو التُّراب من وجه الأرض، والحاملات هي التي تجمع الأجزاء

---

(١) نظم الدر فى تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعى ٤٤٥/١٨ نشر دار الكتاب الإسلامى ــ القاهرة. ط ثانية ــ ١٤١٣هـ ــ ١٩٩٢.

من الجو وتحمله حملاً فإن التراب لا ترفعه الرياح حملاً مستقلاً بل تنقله من موضع إلى موضع، بخلاف السحاب فإنه يحمله في الجو حملاً لا يقع منه شيء، والجاريات هي الجامعة من الماء، فإن من يُجْرِي السفنَ الثقيلة في تيّار البحار قادرٌ على نقل الأجزاء من البحر إلى البرّ، فإذن تبين أن الجمع من الأرض وجو الهواء ووسط البحار ممكن، وإذا اجتمع ذلك كله بَقِيَ نفخُ الروح وهي من أمر الله، فقال : " فالمُقسِّمَاتِ أَمْراً " يعني الملائكة التي تنفخ الروح في الجسد بأَمْر الله.(١)

ثم يأتى القسم بالذاريات والحاملات والجاريات والمقسمات متناسبا مع ما أقسم الله ــ تعالى ــ عليه من ضمان توفير الرزق لعباده الذى أقسم عليه فى السورة الكريمة، فكما أن الذاريات وهى الرياح تحمل الخير، والجاريات السفن تسير فى البحار بقدرة الله ــ تعالى ــ والمقسمات الملائكة تقسم الأرزاق بإرداة الله ــ تعالى ــ فكذلك الله قادر على سوق ما قدره من الرزق لكل أحد على قدر ما قدر له، ومع ما جاء فى آخر السورة من أن الله ــ كفل الرزق لعباده وخلقهم لعبادته فى قوله (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ. مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ. إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ)(٢)، ويأتى القسم متسقا مع ما جاء فى السورة من مجئ الملائكة لبشارة إبراهيم ــ عليه السلام ــ بالرزق بالولد مع بلوغه هو وامرأته السن التى لا يولد معها غالبا. (فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ. فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ. قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ).(٣)

والقسم بالرياح وبالملائكة متماشيا مع ما جاء فى السورة من إهلاك الله ــ تعالى ــ لقوم عاد الذين أرسل الله ــ تعالى ــ عليهم الريح العقيم، ولقوم ثمود الذين أخذتهم الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين، فالرياح التى تحمل الخير للمؤمن تحمل الشر والانتقام للمكذب العاصى والقائم بأمر الله ــ تعالى ــ فى كل هذا هم الملائكة الذين أقسم الله ــ تعالى ــ بهم فى والمقسمات أمرا، وما يعلم جنود ربك إلا هو. (وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ. مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ. وَفِي ثَمُودَ إِذْ

---

(١) مفاتيح الغيب ١٦٨/٢٨

(٢) سورة الذاريات، الآيات من ٥٦ــ ٥٨

(٣) سورة الذاريات، الآيات من ٢٨ــ٣٠

قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ. فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ. فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ).[١]

ومن المفسرين من جعل هذه الصفات الأربع وصفاً للرياح كما قال صاحب الكشاف[٢] واستحسنه الفخر،[٣] قال ابن عاشور: وهو الأنسب لعطف الصفات بالفاء.[٤]

قال الإمام الرازى : هذه صفات أربع للرياح، فالذاريات : هى الرياح التى تنشىء السحاب أولا الحاملات : هى الرياح التى تحمل السحب التى هى بخار الماء... والجاريات: هى الرياح التى تجرى بالسحب بعد حملها. والمقسمات : هى الرياح التى تفرق الأمطار على الأقطار.[٥]

قال الشيخ ابن عاشور : ومن رشاقة هذا التفسير أن فيه مناسبة بين المُقْسَم به والمقسم عليه وهو قوله : (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ. وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ) فإن أحوال الرياح المذكورة هنا مبدؤها : نفخ فتكوين، فإحياء، وكذلك البعث مبدؤه : نفخ في الصور، فالتئام أجساد الناس التي كانت معدومة أو متفرقة، فبثُّ الأرواح فيها فإذا هم قيام ينظرون.[٦]

وإن كان الملاحظ أن المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه واضحة على التفسير الأول الذى فسر أن المراد بالذاريات الرياح لأنها تذرو التراب، والحاملات بالسحاب، والجاريات بالسفن، والمُقسِّمات بالملائكة وقد سبق بيانها مما يغنى عن الإعادة، وليس الأمر كما ارتأى الشيخ ابن عاشور وجاهة ورشاقة من فسر هذه الأشياء بالرياح لأنه يظهر المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه.

قال ابن عاشور: وعطف تلك الصفات بالفاء يقتضي تناسبها وتجانسها، فيجوز أن تكون صفات لجنس واحد وهو الغالب في عطف الصفات بالفاء، ويجوز أن تكون مختلفة الموصوفات إلا أن موصوفاتها متقاربة متجانسة.[٧]

---

(١) سورة الذاريات، الآيات من ٤١ــ ٤٥

(٢) تفسير الكشاف ٣٩٨/٤

(٣) مفاتيح الغيب ١٦٨/٢٨

(٤) التحرير والتنوير ٣٣٧/٢٦

(٥) مفاتيح الغيب ١٦٨/٢٨

(٦) التحرير والتنوير ٣٣٩/٢٦

(٧) التحرير والتنوير ٣٣٧/٢٦

ومما تجدر الإشارة إليه أن أول هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها وذلك لأنه ــ تعالى ــ لما بيّن الحشر بدلائله فى سورة ق وقال (ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيراً)[١] وقال (وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ)[٢] أي تجبرهم وتلجئهم إلى الإيمان إشارة إلى إصرارهم على الكفر بعد إقامة البرهان وتلاوة القرآن عليهم لم يبق إلا اليمين فقال (وَالذرِيَاتِ ذَرْواً... إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ).[٣]

المبحث الثالث: الأسرار والعبر فى الاستفتاح بالقسم فى أول سورة الطور

اختلف المفسرون فى معانى الكلمات التى أقسم الله ــ تعالى ــ بها فى أول سورة الطور وهى قوله ــ تعالى ــ (وَالطُّورِ. وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ. فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ. وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ. وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ. وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ) وإن كان أشهر ما قيل، وأرجح ما ذكر فيها : أن (الطُّورِ) اسم الجبل الذي كلم الله عليه موسى ــ عليه السلام ــ وقد أقسم الله ــ تعالى ــ بالطور في قوله : (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ. وَطُورِ سِينِينَ)[٤].

قال القرطبى ــ رحمه الله ــ : وأقسم الله به تشريفا له وتكريما وتذكيرا لما فيه من الآيات.[٥]

(وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ) أي مكتوب ؛ والمراد به القرآن يقرؤه المومنون من المصاحف ويقرؤه الملائكة من اللوح المحفوظ.[٦]

(رَقٍّ مَنْشُورٍ) : أي مكتوب في رق. والرق :الجلد الرقيق يكتب فيه.

وقال الراغب : الرق ما يكتب فيه.[٧] فهو أعمّ من كونه جلداً وغيره. منشور : أي مبسوط مهيأ للقراءة.[٨]

---

(١) سورة ق، آية : ٤٤

(٢) سورة ق، آية : ٤٥

(٣) مفاتيح الغيب ١٦٨/٢٨

(٤) سورة التين، الآيتان ١ــ ٢

(٥) الجامع لحكام القرآن ٥٨/١٧

(٦) الجامع لأحكام القرآن ٥٩/١٧

(٧) المفردات ٤١٠/١

(٨) السراج المنير لمحمد بن أحمد الخطيب الشربينى ٧١/٤ نشر دار الكتب العلمية ــ بيروت.، الجواهر الحسان فى تفسير القرآن لعبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبى ٢١٤/٤ ــ نشر مؤسسة الأعلمى ــ بيروت

وقد أقسم الله ــ تعالى ــ به كثيرا في كتابه، كما فى قوله ــ تعالى ــ:(حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ)[١]. وقوله ــ تعالى ــ (يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ).[٢]

وقد جاء لفظ الكتاب الدال على القرآن الكريم نكرة للدلالة على أنه كتاب مخصوص من بين سائر الكتب، كما استدل المفسرون بهذا التنكير على أن المراد به القرآن الكريم. [٣]

يقول الفخر الرازي فى الحكمة من تنكير الكتاب وتعريف باقي الأشياء، نقول : ما يحتمل الخفاء من الأمور الملتبسة بأمثالها من الأجناس يعرف باللام، فيقال رأيت الأمير ودخلت على الوزير، فإذا بلغ الأمير الشهرة بحيث يؤمن الالتباس مع شهرته، ويريد الواصف وصفه بالعظمة، يقول اليوم رأيت أميراً ماله نظير جالساً وعليه سيما الملوك وأنت تريد ذلك الأمير المعلوم، والسبب فيه أنك بالتنكير تشير إلى أنه خرج عن أن يعلم ويعرف بكنه عظمته. وهنا الطور ليس في الشهرة بحيث يؤمن اللبس عند التنكير، وكذلك البيت المعمور، وأما الكتاب الكريم فقد تميز عن سائر الكتب، بحيث لا يسبق إلى أفهام السامعين من النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ لفظ الكتاب إلا ذلك، فلما أمن اللبس وحصلت فائدة التعريف سواء ذكر باللام أو لم يذكر قصداً للفائدة الأخرى وهي في الذكر بالتنكير، وفي تلك الأشياء لما لم تحصل فائدة التعريف إلا بآلة التعريف استعملها [٤] ففي التنكير كمال التعريف والتنبيه على أن ذلك الكتاب لا يخفى نكّر أو عرّف.[٥]

(وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ) هو بيت في السماء حيال الكعبة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم يخرجون منه فلا يعودون إليه.[٦]

قال ابن كثير: ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال فى حديث الإسراء والمعراج، بعد مجاوزته إلى السماء السابعة : " ثم رفع بى إلى البيت

---

(١) سورة الزخرف، آية :١، سورة الدخان، آية:١

(٢) سورة يس، الآيتان : ١ــ٢

(٣) مدارك التنزيل لأبى البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفى ١٥٠/٤ تحقيق مروان محمد الشعار ــ نشر دار نفائس ــ بيروت، الكشاف للزمخشرى ٤١١/٤

(٤) مفاتيح الغيب ٢٠٦/٢٨

(٥) روح المعانى للآلوسى ٢٧/٢٧

(٦) الجامع لأحكام القرآن لأبى عبد الله القرطبى ٥٩/١٧

المعمور، وإذا هو يدخله فى كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ".[١]

وعلى هذا فيكون الله ــ تعالى ــ قد أقسم بسيد الجبال وسيد الكتب. ويكون ذلك متضمناً للنبوتين المعظمتين نبوة موسى ونبوة محمد ــ عليهما الصلاة والسلام ــ، ثم أقسم بسيد البيوت وهو البيت المعمور.[٢]

(وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ) يعني السماء سماها سقفا ؛ لأنها للأرض كالسقف للبيت ؛ وقد أقسم الله ــ تعالى ــ بها كثيرا فى القرآن الكريم من ذلك قوله ــ تعالى ــ(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ)[٣] وقوله: (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)[٤] وقوله (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً).[٥]

(وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ) فيه وجهان من التفسير للعلماء. أحدهما : أن المسجور هو الموقد ناراً قالوا : وسيضطرم البحر يوم القيامة ناراً، من هذا المعنى قوله ــ تعالى ــ : (ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ)[٦].

الوجه الثاني : هو أن المسجور بمعنى المملوء، لأنه مملوء ماء.[٧]

فهذا إشارة إلى قدرة الله ــ تعالى ــ التى منعت هذا البحر المملوء ماء من أن يغرق الأرض وأهلها ؛ لأنه لا جدران له تمنعه من إغراق الأرض ومن عليها، والأرض كروية، فلو نظرنا إلى هذا البحر بمقتضى الطبيعة، لقلنا: لابد أن يفيض على الأرض فيغرقها، ولكن الله ــ تبارك وتعالى ــ أمسكه بقدرته ــ سبحانه وتعالى ــ، وهذه آية من آيات الله.

---

(١) صحيح البخارى، كتاب : بدء الخلق، باب : ذكر الملائكة ــ صلوات الله عليهم ــ ص ٦٧٥ نشر مكتبة الإيمان ــ المنصورة ــ مصر ــ سنة ١٤٢٣هـ، صحيح مسلم، كتاب : الإيمان، باب : الإِسْرَاءِ بِرَسُولِ اللَّهِ ــ صلى الله عليه وسلم ــ إِلَى السَّمَوَاتِ وَفَرْضِ الصَّلَوَاتِ ٩٩/١. تفسير القرآن العظيم ٤٢٧/٧.

(٢) التبيان ٤٠١

(٣) سورة الذاريات، آية:٧

(٤) سورة البروج، آية:١

(٥) سورة الأنبياء، آية: ٣٢

(٦) سورة غافر، آية :٧٢

(٧) الجامع لأحكام القرآن ٦١/١٧، أضواء البيان ٤٥٢/٧

وقد يراد به كلا المعنيين اللذين ذكرهما العلماء من كونه مملوءا وكونه سيوقد نارا يوم القيامة إذ لا يوجد ما يمنع من حمل اللفظ على كلا المعنيين. فهو مملوء فى الدنيا وسيوقد نارا يوم القيامة.

وقوله ــ تعالى ــ : (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ) هذا جواب القسم.

فالله ــ جلت حكمته ــ أقسم فى هذه الآيات بخمسة أقسام هى : الطور، والكتاب المسطور والبيت المعمور، والسقف المرفوع، والبحر المسجور. وقد دل القسم بها على عظم هذه المخلوقات، وعلى استحقاقه ــ سبحانه ــ الإلوهية، وإفراده بالوحدانية، وقدرته على إحداث التغييرات فى هذه المخلوقات من سير الجبال ومور السماء الحادث يوم الجزاء الذى أقسم الله ــ تعالى ــ عليه فى هذه الآيات.

قال صاحب الجواهر الحسان : فهذه مخلوقات أقسم الله ــ عز و جل ــ بها تنبيها على النظر والاعتبار بها المؤدي الى توحيد الله والمعرفة بواجب حقه سبحانه.(١)

وقال الأستاذ عبد الكريم الخطيب: أقسم الله ــ تعالى ــ بها، وهى بهذا القسم من الله ــ سبحانه ــ تلبس ثوب التكريم، والتعظيم، وفى تكريمها وتعظيمها، إشعار بعظمة الخالق، الذى أبدع هذه المخلوقات العظيمة، وأقامها هذا المقام الكريم، حتى لقد كانت أهلا لن يُقْسِم خالقها بها ويعرضها فى هذا المعرض الكريم.(٢)

ووجه التناسب بين المقسم به والمقسم عليه ظاهر وواضح، فالله ــ تعالى ــ أقسم بالأقسام الخمسة السابقة على أن الوعيد الذى أقسم عليه من وقوع العذاب بالمكذبين المنكرين فى قوله (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ) أثبت وأمكن من الجبال التي أخبر الله ــ تعالى ــ بسيرها، والسقف الذي يمكن لمن رفعه أن يضعه، والبحر الذي يمكن لمن سجره أن يرسله.

قال برهان الدين البقاعى : مقصودها تحقيق وقوع العذاب الذي هو مضمون الوعيد المقسم على وقوعه في الذاريات الذي هو مضمون الإنذار المدلول على صدقه في ق، فإن وقوعه أثبت وأمكن من الجبال التي أخبر الصادق بسيرها، وجعل دك بعضها آية يمكن عامره وغيره إخرابه، والسقف الذي يمكن رافعه وضعه، والبحر الذي يمكن من

---

(١) الجواهر الحسان للثعالبي ٤/٢١٣

(٢) التفسير القرآنى للقرآن لعبد الكريم الخطيب٢٧/٥٤٤ نشر دار الفكر العربى

سجره أن يرسله، وقد بان أن اسمها أدل ما يكون على ذلك بملاحظة القسم وجوابه حتى بمفردات الألفاظ في خطابه.[١]

ويتضح لنا من كلام البقاعى السابق وجه مناسبة ما أقسم الله ــ تعالى ــ به للمقسم به. فوقوع العذاب الذى أقسم الله ــ تعالى ــ عليه بالطور وبالسقف التى هى السماء، وبالبحر لهو أكثر ثباتا وتحققا من الجبال الراسخة ومن السماء التى نراها بلا عمد ومن البحر الذى سجره الله.

وهذا الوجه فى مناسبة ما أقسم الله ــ تعالى ــ به للمقسم به فى هذه السورة ما أشار إليه الإمام الرازى فى قوله : القسم لما كان على وقوع العذاب وعلى أنه لا دافع له، وذلك لأن لا مهرب من عذاب الله ؛ لأن من يريد دفع العذاب عن نفسه، ففي بعض الأوقات يتحصن بمثل الجبال الشاهقة التي ليس لها طرف وهي متضايقة بيَّن أنه لا ينفع التحصن بها من أمر الله ــ تعالى كما قال ابن نوح ــ عليه السلام ــ(قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ)[٢] حكاية عن نوح ــ عليه السلام ــ.[٣]

بينما يرى ابن عاشور صاحب التحرير والتنوير أن مناسبة الأمور المقسم بها للمقسم عليه أن هذه الأشياء المقسم بها من شؤون بعثه موسى ــ عليه السلام ــ إلى فرعون، وكان هلاك فرعون ومن معه من جراء تكذيبهم موسى ــ عليه السلام ــ.

ففسر الطور بطور سيناء الذي ناجى فيه موسى ــ عليه السلام ــ، وأنزل عليه فيه الألواح المشتملة على أصول شريعة التوراة.

ورأى أن المراد بـ (كتاب مسطور. في رَقّ منشور) التوراةُ التي كتبها موسى ــ عليه السلام ــ بعد نزول الألواح، وضمَّنها كل ما أوحَى الله إليه مما أمر بتبليغه في مدة حياته إلى ساعات قليلة قبل وفاته.

ومناسبة القسم بالتوراة أنها الكتاب الموجود الذي فيه ذكر الجزاء وإبطال الشرك، وللإشارة إلى أن القرآن الذي أنكروا أنه من عند الله ليس بدعاً فقد نزلت قبله التوراة

---

(١) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور ١/١٩

(٢) سورة هود، آية: ٤٣

(٣) مفاتيح الغيب ٢٠٦/٢٨

وذلك لأن المقْسَم عليه وقوع العذاب بهم وإنما هو جزاء على تكذيبهم القرآن ومن جاء به، بدليل قوله بعد ذكر العذاب (فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ. الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ).(١)

وأن المراد بالبيت المعمور الكعبة قال : وهذا الأنسب بعطفه على الطور. وأن المراد بالبحر بحر القلزم، وهو البحر الأحمر ومناسبة القَسَم به أنه به أُهلك فرعون وقومه حين دخله موسى وبنو إسرائيل فلحق بهم فرعون.(٢)

وقد دفع الشيخ ابن عاشور إلى هذا التفسير هو حرصه الشديد على إيجاد المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه، فخالف ما عليه أكثر المفسرين، وأتى بما لم يقل به أحد غيره مع أن المناسبة بين هذه الأقسام الخمسة على نحو ما عليه أكثر المفسرين ظاهرة واضحة جلية، لا تحتاج كل هذا التكلف الذى ركبه ابن عاشور من أجل إيجاد المناسبة.

وتفسيره السابق للآيات عليه الكثير من المآخذ، فتفسيره للكتاب المسطور بأنه التوراة ضعيف ؛ لأن التوراة لم تكن فى رق وإنما كانت فى ألواح فقد قال الله ــ تعالى ــ (وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ)(٣)، وقال(وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ)(٤).

وتفسيره للبيت المعمور بأنه الكعبة مخالف لما جاء فى الصحيحين أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال في حديث الإسراء بعد مجاوزته إلى السماء السابعة: (فَرُفِعَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ فَقَالَ هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ).(٥)

فالذى تطمئن إليه النفس هو أن المراد بالطور الجبل الذي كلم الله عليه موسى ــ عليه السلام ــ وأن الكتاب المسطور هو القرآن العظيم، وأن المراد بالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ السماء، وأن الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ هو البيت المعروف في السماء. وعليه فالمناسبة بين المقسم به والمقسم عليه ما تقدم بيانه. والله أعلم.

---

(١) سورة الطور، الآيتان :١١ــ١٢

(٢) التحرير والتنوير ٣٨/٢٧

(٣) سورة الأعراف، آية: ١٥٠

(٤) سورة الأعراف، آية: ١٥٤

(٥) تقدم تخريجه

المبحث الرابع: الأسرار والعبر فى الاستفتاح بالقسم فى أول سورة النجم

افتتح الله ــ تعالى ــ هذه السورة بالقسم بالنجم ؛ للدلالة على صدق النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيما جاء به عن ربه ــ سبحانه وتعالى ــ، وللرد على المشركين الذين اتهموا الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالكهانة والسحر والجنون والشعر لما جاءهم بالحق من عند الله.

وقد اختلف المفسرون فى المراد بالنجم الذى أقسم الله ــ تعالى ــ به فى أول هذه السورة الكريمة

فمن العلماء من فسر النجم بأنه الكوكب الذى يبدو للناظرين، لامعا فى جو السماء ليلا. والمراد به هنا : جنس النجوم، أى : ما يشمل كل نجم بازغ فى السماء.(١)

ومن العلماء من خصه بنجم معين فقال : هو الشعرى، وهو نجم كان معروفا عند العرب. وقد جاء الحديث عنه فى آخر السورة، فى قوله ــ تعالى ــ : (وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى)(٢) قالوا : وكانت قبيلة خزاعة تعبده.(٣)

وهناك من قال إن المراد به : الثريا، فإنه من النجوم المشهورة عند العرب. ومن قائل : المراد بالنجم هنا ما يرجم به الشياطين عند استراقهم السمع.(٤)

ومن العلماء من فسر النجم هنا بنجوم القرآن، وعليه فالمراد بالنجم فى الآية المقدار الذى كان ينزل على النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ من القرآن فى كل مرة. وسمي نجماً لأنه نزل نجوماً متفرقة. ويسمى التفريق تنجيماً والمفرّق منجما.(٥)

وإن كان الرأى الذى أميل إليه وتطمئن له نفسى، هو أن المراد به جنس النجوم، وبهذا يشمل الكثير مما قاله العلماء من التخصيص فيراد به الثريا، ويحتمل الشعرى،

---

(١) التفسير الوسيط ٦٨/١٤

(٢) سورة النجم، آية : ٤٩

(٣) روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى لمحمود الآلوسى ٢٧/ ٤٥ نشر دار إحياء التراث العربى.

التفسير الوسيط٦٨/١٤

(٤) فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية للشوكانى١٠٤/٥ــ١٠٥ نشر دار الفكر ــ بيروت

(٥) السراج المنير ٨٠/٤

ويمكن إرادة النجم الذى يرجم به الشياطين. ويكون القسم به كالقسم بالشمس وبالقمر إلى غير ذلك من الآيات العظيمة التى أقسم الله ــ تعالى ــ بها من مخلوقاته الدالة عظم خالقها. وإن كنت لا أرى صحة رأى من قال إن المراد به المقدار النازل من القرآن على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إذ إن حمل المعنى على ما هو ظاهر معروف فى الحقيقة أولى ــ لا سيما ــ أن القرآن الكريم لم يستعمل إطلاق نجوم القرآن على نزول القرآن الكريم مفرقا. وإنما هو إطلاق عرف فى اللغة ولكن لم يستخدمه القرآن الكريم نفسه على الإنزال المفرق من القرآن، فحينما تحدث القرآن الكريم عن نزول القرآن الكريم مفرقا استعمل معه لفظ (فرقنا ــ ونزّلنا) قال الله ــ تعالى ــ(وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا).(١)

ومعنى قوله (إِذَا هَوَى) على أن المراد به النجم المعروف فى السماء أو الثريا أو الرجوم التى ترمى بها الشياطين، فالمراد بالهُوى فيه الطلوع أو الغروب أو السقوط أو الانتثار يوم القيامة.(٢)

وقوله ــ تعالى ــ :(مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى) هذا جواب القسم ؛ أي ما ضل محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ عن الحق وما حاد عنه. (وَمَا غَوَى) الغي ضد الرشد أي ما صار غاويا. وقيل : أي ما تكلم بالباطل.(٣)

وفى القسم بالنجم في مطلع هذه السورة تشريف له ؛ كما أن فيه إثباتا لظاهرة الوحي على قلب النبي ــ صلّى اللّه عليه وسلّم ــ بواسطة أمين الوحي جبريل ــ عليه السّلام ــ.

والقَسَم بالنجم لما في خَلقه من الدلالة على عظيم قدرة الله ــ تعالى ــ، فقد قال الله ــ تعالى ــ حكاية عن إبراهيم ــ عليه السلام ــ (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي).(٤)

---

(١) سورة الإسراء، آية:١٠٦

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٨٣/١٧، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبى السعود محمد بن محمد العمادي ١٥٤/٨ ــ نشر : دار إحياء التراث العربي ــ بيروت، روح المعانى٤٤/٢٧

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى٨٥/١٧

(٤) سورة الأنعام، آية: ٧٦. التحرير والتنوير ٢٧ /٩٠

قال الرازى : السور التي تقدمت وافتتاحها بالقسم بالأشياء دون الحروف هي " الصَّافَّات "، و " الذَّارِيَات " و " الطُّور " وهذه السورة بعدها فالأولى أن يقسم لإثبات الوحدانية كما قال :(إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ)[١]، وفي الثانية أقسم لوقوع الحشر والجزاء كما قال ــ تعالى ــ :(إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ)[٢]، وفي الثالثة لدوام العذاب بعد وقوعه كما قال ــ تعالى ــ : (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ. مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ)[٣] وفي هذه أقسم لإثبات النبوة لتكمل الأصول الثلاثة الوحدانية، والحشر، والنبوة.

والله ــ تعالى ــ لم يقسم على الوحدانية ولا على النبوة كثيراً، لأنه أقسم على الوحدانية في سورة واحدة وهي " وَالصَّافَّاتِ "، وأما النبوة فأقسم عليها بأمر واحد في هذه السورة وبأمرين في سورة (وَالضُّحَى) وأكثر من القسم على الحشر وما يتعلق به فقال :(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى)[٤] (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)[٥] (وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)[٦] إلى غير ذلك وكلها في الحشر أو ما يتعلق به وذلك لأن دلائل الوحدانية كثيرة كلها عقلية كما قيل : وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الوَاحِدُ

ودلائل النبوة ــ أيضاً ــ كثيرة وهي المعجزات المشهورة. وأما الحشر ووقوعه فلا يمكن إثباته إلاَّ بالسمع فأكثر فيه القسم ليقطع بها المكلف ويعتقده اعتقاداً جازماً.[٧]

وقد تعددت المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه وتنوعت بتنوع المراد بالنجم الذى أقسم الله ــ تعالى ــ به، فذهب من فسر النجم بأنه جنس النجم إلى مناسبة تتفق مع ما فسر به، ومن فسر النجم بالذى يرجم به الشياطين ذهب إلى مناسبة تلاءم تفسيره، وهذا من وجوه إعجاز هذا الذكر الحكيم.

---

(١) سورة الصافات، آية: ٤

(٢) سورة الذاريات، الآيتان : ٥ــ٦

(٣) سورة الطور، الآيتان : ٧ــ٨

(٤) سورة الليل، آية:١

(٥) سورة الشمس، آية:١

(٦) سورة البروج، آية:١

(٧) مفاتيح الغيب للرازى ٢٣٩/٢٨

فابن القيم ــ رحمه الله ــ لما فسر النجم بما يرجم بــه الشــياطين ، رأى " أن الله ــ تعالى ــ أقسم بهذه الآية الظاهرة المشاهدة التى نصبها الله ــ سبحانه ــ آية وحفظا للــوحى من استراق الشياطين ولا طريق له إليه، بل قد أحرس بالنجم إذا هوى رصدا بين يدى الوحى وحرسا له. وعليه فالارتباط بين المقسم به والمقسم عليه فى غاية الظهور. وفى المقسَم بــه دليل على المقسم عليه....وبين المقسم به والمقسم عليه من التناسب مــا لا يخفــى ؛ فــإن النجوم التى ترمى بها الشياطين آيات من آيات الله، يحفظ بها دينه، ووحيه، وآياتــه المنزلــه على رسوله فبها ظهر دينه، وشرعه، وأسماؤه، وصفاته، وجُعلت هذه النجوم المشاهدة خدما وحرسا لهذه النجوم الهادية.[١]

وهذا من أدق وجوه التناسب بين عنصرى القسم ؛ لأنه بذلك يكون قــد أقســم بآيــات على آيات وبحارس على محروس، فدل بذلك على عظمة الــوحى وعظمــة منزلــه، وعلــى سلامته من الزيادة أو النقصان، وفيه إشارة إلى أن آيات القرآن ونجومه النازلة إلــى الأرض تحمى أهلها من الشياطين كما تحمى تلك النجوم السماوية آيات القرآن فى السماء.[٢]

أما من ذهب إلى أن المراد بالنجم فى الآية جنس النجوم أو أن المراد بــه الثريــا رأى أن المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه : فكما أن الــنجم المقســم بــه لا يضــل السبيل، وبه يهتدي السائرون، فالمقسم عليه : كون محمد ــ صلى الله عليــه وســلم ــ على محجة الهداية وكون ما جاء به ليس إلا وحيا تلقاه من عالم الغيب والشهادة.[٣]

قال أبو السعود : وفي الإقسام بذلك على نزاهته ــ عليه الصلاة والســلام ــ عــن شائبة الضلال والغواية من البراعة البديعة وحسن الموقع مالا غاية وراءه، فلأن الــنجم شأنه أن يهتدى به السارى إلى مسالك الدنيا كأنه قيل: والنجم الذي يهتدى به السابلة الى سواء السبيل (مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ) أى ما عدل عن طريق الحق الذى هو مسلك الآخرة (وَمَا غَوَى) أى وما اعتقد باطلا قط أى هو في غاية الهدى والرشد وليس مما تتوهمونه مــن الضلال والغواية في شيء أصلا.[٤]

---

(١) التبيان لابن لقيم ٣٦٣ــ٣٦٤

(٢) القسم فى القرآن الكريم دراسة بلاغية ٤٩٦/٢

(٣) أسلوب القسم الظاهر فى القرآن الكريم ص٣٨

(٤) إرشاد العقل السليم ١٥٤/٨

فالنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ موحى إليه من ربه فيما يبلغ عن ربه، وهو بعيد عن طريق الضلالة والغواية، وإنما هو هاد يهدى إلى سبيل الحق، فلأن كان النجم يهتدى به الضال فى أمور الدنيا، فالرسول الكريم ــ صلى الله عليه وسلم ــ يهتدى به إلى طريق الآخرة، وبه يكون الوصول إلى سعادة الدنيا والآخرة.

وإنما قال : ما ضل صاحبكم، ولم يقل : ما ضل محمد، تأكيدا لإقامة الحجة عليهم؛ لأنهم مصاحبون له طوال أربعين سنة قبل البعثة، وهم أعلم الخلق به، وبحاله، وبأقواله وبأعماله، وأنهم في تلك المدة الطويلة لم يشاهدوا منه إلا الصدق، والأمانة، والعقل الراجح.

والقول السديد، فقولهم بعد بعثته ــ صلى الله عليه وسلم ــ إنه ساحر، أو مجنون، هو نوع من كذبهم البين، وجهلهم المطبق.(١)

وتقييد القسم بوقت الهوى على أن المراد بالنجم جنسه أو الثريا ؛ فلأن النجم لا يهتدى به السارى عند كونه في وسط السماء ولا يعلم المشرق من المغرب ولا الشمال من الجنوب وإنما يهتدى به عند هبوطه أو صعوده.(٢)

قال النيسابورى: والفائدة في تقييد القسم به بوقت هويه ؛ لأن النجم إذا كان في وسط السماء لم يهتد به الساري لأنه لا يعلم المغرب من المشرق والجنوب من الشمال، فإذا مال إلى الأفق عرف به هذه الجهات والميل إلى أفق المغرب أولى بالذكر من الناظر إليه حينئذ يستدل بغروبها على أفوله في حيز الإمكان فيتم له اهتداء الدين مع اهتداء الدنيا.(٣)

ويحتمل أن تقييد القَسَم بالنجم بوقت غروبه لإشعار غروب ذلك المخلوق العظيم بعد أَوْجه في شرف الارتفاع في الأفق على أنه تسخير لقدرة الله تعالى، ولذلك قال إبراهيم : (لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ).(٤)

---

(١) التبيان فى أيمان القرآن لابن القيم ٣٦٥ تحقيق عبد الله بن سالم البطاطى ــ نشر دار عالم الفوائد، حاشية الشهاب الخفاجى٨/١١٠ نشر دار صادر ــ بيروت.

(٢) إرشاد العقل السليم ١٥٤/٨

(٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري ١٩٨/٦ ــ نشر دار الكتب العلمية ــ بيروت / لبنان ١٤١٦ هـ ــ ١٩٩٦ م. ط أولى.

(٤) سورة الأنعام، آية: ٧٦ التحرير والتنوير٢٧/٩٠

وفيه من اللطائف ــ أيضاً ــ أن القسم بالنجم يقتضي تعظيمه وقد كان منهم من يعبده فنبه بهُويِّه على عدم صلاحيته للإلهيَّة بأُفُولِهِ.(١)

بينما يذكر ابن عاشور مناسبة بين المقسم به والمقسم عليه من جهة أخرى، فيرى أن: مناسبة القسم بالنجم إذا هَوَى، أن الكلام مسوق لإثبات أن القرآن وحي من الله منزل من السماء فشابَه حالُ نزوله الاعتباريِّ حال النجم في حالة هويِّه مشابهة تمثيلية حاصلة من نزول شيء منيرٍ إنارة معنوية نازل من محل رفعة معنوية، شبه بحالة نزول نجم من أعلى الأفق إلى أسفله وهو من تمثيل المعقول بالمحسوس).(٢)

أى أن المقسم به وهو نزول الوحى من السماء وهو أمر معقول يشبه نزول النجم من السماء وهو من الأمور المحسوسة، وعلى هذا فبين عنصرى القسم مشابهة بجامع ما فيهما من النزول والإنارة والرفعة.

أما على كون المشبه هو جبريل فيكون هذا من باب تشبيه المحسوس بالمحسوس، وهو ما أشار إليه ابن عاشور بقوله : أو الإشارة إلى مشابهة حالة نزول جبريل من السماوات بحالة نزول النجم من أعلى مكانه إلى أسفله، أو بانقضاض الشهاب تشبيه محسوس بمحسوس.(٣)

ويذكر الأستاذ عثمان أبو النصر وجها آخر للمناسبة بين المقسم به والمقسم عليه، فيذكر أن الله ــ تعالى ــ قد أقسم هنا (بالنجم) والنجوم آية من آياته الدالة على قدرته (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)(٤) وآيات القرآن يهتدى بها فى ظلمات الغى والجهل، فالنجم هداية فى الظلمات الحسية وآيات القرآن هداية فى الظلمات المعنوية.(٥)

---

(١) اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الدمشقي الحنبلي ١٨/١٥٤ــ تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض ــ نشر دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان ١٤١٩ هـ ١٩٩٨ م ــ ط أولى.

(٢) التحرير والتنوير ٢٧/٩١

(٣) التحرير والتنوير ٢٧/٩٢

(٤) سورة الأنعام، آية: ٩٧

(٥) أسلوب القسم فى القرآن الكريم دراسة بلاغية ٢/٤٩٩ نقلا عن القسم بالمخلوقات فى القرآن الكريم صحيفة دار العلوم، المجلد ٤٩ ص ٤٠.

وهذا على أن ما وقع عليه القسم آيات القرآن الكريم. مع أن تفسير المقسم عليه بأنه الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ هو الأنسب حتى يعم ويشمل ما جاء به النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ من هدايات السنة النبوية.

ويذكر الأستاذ عبد الكريم الخطيب وجها من المناسبة فيربط بين القسم بالنجم وقت هويه ووقوع هذا القسم على النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأنه ما غوى، ويرى أن فى هذا إشارة إلى ظهور النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى ليل الجاهلية كما يظهر النجم الهادى فى الليل البهيم، وأنه والنور الذى معه لم يهتد به فى الدور المكى من الدعوة إلى وقت نزول هذه السورة إلا القليل من الناس، فكان القسم يشير إلى أن هذا النجم الهادى يوشك أن يغرب ويغيب عن أفقهم فلا يهتدون به، وأن هذا النجم القطبى ــ وإن غاب عن الأعين ــ فإنه قائم فى مقامه العالى، فكذلك الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وإن غاب عن أعينهم نوره وهداه ــ فإنه قائم فى قلوب المؤمنين.[١]

وإليك هذا الحس البلاغى الرفيع الذى ألمح إليه أحد الباحثين فى إظهار العلاقة بين طرفى القسم فى بيان التناغم بين لفظى (هوى) و(والهوى) فى قوله :(وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى. مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى. وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى) فيرى أن فى هذا التناغم ما يشير إلى صلة سقوط النجم وهويّه على نحو يستحيل فيه إلى كتلة من النار المحرقة بعد أن كان هاديا ونافعا بسقوط الإنسان فى هوى النفس، وذلك إلماح بديع إلى أن اتباع الإنسان هوى نفسه يرديه ويسقطه فى هاوية يصبح فيها ضارا ومهلكا لنفسه ولغيره، وإلى أن ارتفاعه عن هوى النفس يعلى شأنه ويجعله كالنجم الباقى فى السماء يهتدى به الناس ويجلّونه ويقدرون مكانه العالى. وفيه إشارة ذكية إلى كفار قريش الذين نسبوا ما جاء به الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى هواه وأنه جاء به من عند نفسه فى بعض أقوالهم فيه، على حين أنهم هم الذين حادوا عن الحق وسقطوا فى هاوية الضلال.

وهذا ما يوضحه قول الحق ــ جل جلاله ــ (.....إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى)[٢] وقوله ــ سبحانه ــ بعد ذلك (....إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا. فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا

---

(١) التفسير القرآنى للقرآن لعبد الكريم الخطيب ٥٨٦/٢٧

(٢) سورة النجم، آية: ٢٣

الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى).[١]

وفى قوله ــ تعالى ــ فى سياق الحديث عن هلاك الأمم المكذبة (وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى)[٢] وهى قرى قوم لوط أسقطها الله ــ تعالى ــ بعد أن رفعها إلى السماء مقلوبة إلى الأرض بوساطة جبريل ــ عليه السلام ــ.[٣]

فانظر إلى هذا التناغم اللفظى البديع بين لفظ (أهوى) وما تقدم فى أول السورة من القسم بالنجم (إذا هوى) وما يشير إليه ذلك كله من بيان شأن من أعرض عن الحق واتبع هوى نفسه فغوى فهوى فى الدنيا والآخرة، ثم إن لورود جبريل ــ عليه السلام ــ ضمنا فى هذه الآية ارتباطا بما جاء فى أول السورة بعد القسم بالنجم لما له من صلة بنزوله بالوحى على الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ.[٤]

كما تلحظ الارتباط بين القسم فى أول السورة بالنجم وبين قوله ــ تعالى ــ (وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى)[٥] فتقرير أن الله هو رب الشعرى له مكانة فى السورة التى تبدأ بالقسم بالنجم إذا هوى.[٦] ولهذا علاقة بما سبقت الإشارة إليه من أن تقييد القسم بحال الهوى يفيد أن النجوم مهما عظمت فإنها تهوى وتزول عن مدارها فلا يليق أن تكون معبودة من دون الله.[٧] فسبحان من لا تنفد كلماته!!

المبحث الخامس: الأسرار والعبر فى الاستفتاح بالقسم فى أول سورة القيامة

أقسم الله ــ تعالى ــ فى مفتتح هذه السورة بيوم القيامة وبالنفس اللوامة للتنبيه على عظم هذا اليوم وما يحدث فيه من أهوال تدفع صاحب النفس المؤمنة اللائمة لنفسها للعمل والاستعداد لهذا اليوم.

---

(١) سورة النجم، الآيات من ٢٨ــ ٣٠. أسلوب القسم فى القرآن الكريم دراسة بلاغية ٢/٥٠٠ــ٥٠١

(٢) سورة النجم، آية:٥٣

(٣) الجامع لأحكام القرآن١٧/١٢٠

(٤) القسم فى القرآن الكريم دراسة بلاغية ٢/٥٠٠ــ٥٠٢

(٥) الآية:٤٩

(٦) فى ظلال القرآن لسيد قطب ٦/٣٤١٨ نشر دار الشروق ــ ط الثالثة عشرة ــ ١٤٠٧ه ــ ١٩٨٧م.

(٧) فى ظلال القرآن٦/٣٤٠٦

وقد اختلف العلماء فى لفظة " لا " فى مثل هذا التركيب (لَا أُقْسِم) فيرى بعض المحققين أنها مزيدة للتأكيد، والمعنى : أقسم بيوم القيامة. وقد أشار الشيخ محمد عبده ــ رحمه الله ــ إلى المقتضى البيانى للعدول عن أقسم إلى لا أقسم حيث قال : قوله : (لاَ أُقْسِمُ..) عبارة من عبارات العرب فى القسم، يراد بها تأكيد الخبر، كأنه فى ثبوته وظهوره لا يحتاج إلى قسم. ويقال إنه يؤتى بها فى القسم إذا أريد تعظيم المقسم به. كأن القائل يقول : إنى لا أعظمه بالقسم، لأنه عظيم فى نفسه، والمعنى فى كل حال على القسم.(١)

وقال بعض العلماء : " لا " هذه للنفى، وهذه عبارة تعود العرب أن يقولوها عندما يكون المقسم عليه ظاهر أمره، كأنه ــ تعالى ــ يقول : أنا لا أقسم بهذه الأشياء، على إثبات هذا المطلوب الذى أذكره بعد، لأن إثباته أظهر وأجلى وأقوى من أن يحاول محاول إثباته بالقسم.

ويقال : معناه : أنا لا أقسم بهذه الأشياء على إثبات المطلوب، لأنه أعظم وأجل وأكبر من أن يقسم عليه، بهذه الأمور الهينة الشأن، والغرض على هذا الوجه، تعظيم المقسم عليه وتفخيم شأنه.(٢)

إذاً فلا خلاف أن المراد من هذا الأسلوب القسم سواء كانت لا مزيدة للتوكيد أم نافية وأن هذا لون من ألوان الأساليب العربية القصد منه التأكيد وقد قال علماء اللغة : (إن التأكيد عن طريق النفى، ليس بغريب عن مألوف استعمالنا، فأنت تقول لصاحبك : لا أوصيك بفلان تأكيدا للوصية ومبالغة فى الاهتمام بها، كما تقول لن أُلِحَ عليك فى زيارتنا. فتبلغ بالنفى ما لا تبلغه بالطلب المباشر الصريح)(٣).

وافتتاح السورة بالقسم يؤذن بأن ما سيذكر بعده أمر مهم لتستشرف به نفس السامع. والقَسَم بيوم القيامة براعةُ استهلال لأن غرض السورة وصف بيوم القيامة... والقسم بيوم القيامة باعتباره ظرفاً لما يجري فيه من عدل الله وإفاضة فضله وما يحضره من الملائكة والنفوس المباركة.(٤)

---

(١) التفسير البيانى ١/١٦٥ــ١٦٦

(٢) التفسير الوسيط أ د طنطاوى ١٥/٥٦٢

(٣) أساليب القسم فى اللغة العربية لكاظم فتحى الراوى ١٥٠ــ١٥١ مطبعة الجامعة ــ بغداد ــ ١٣٩٧ه ــ ١٩٧٧م.

(٤) التحرير والتنوير ٢٩/٣٣٨ــ٣٣٩

وقد أقسم الله ــ سبحانه ــ فى هذه السورة بيوم القيام، وأقسم بالنفس اللوامة. فما قيل فى اقتران حرف (لا) بيوم القيامة يقال فى اقترانه بالنفس اللوامة من إثبات القسم وتأكيده.

قال القرطبى: (وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) قسم بالنفس اللوامة.(١)

وقال الثعلبي : والصحيح أنه أقسم بهما جميعا.(٢)

وقال ابن القيم : وجمع ــ سبحانه ــ فى القسم بين محل الجزاء وهو يوم القيامة. ومحل الكسب وهو النفس اللوامة...ولما كان يوم معادها هو محل ظهور هذا اللوم وترتُّب أثره عليه، قَرَن بينهما فى الذكر.(٣)

ومعنى:(بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) أي بنفس المؤمن الذي لا تراه إلا يلوم نفسه، يقول : ما أردت بكذا؟ فلا تراه إلا وهو يعاتب نفسه. قال الحسن : هي والله نفس المؤمن، ما يرى المؤمن إلا يلوم نفسه: ما أردت بكلامى ؟ ما أردت بأكلي ؟ ما أردت بحديث نفسي ؟ والفاجر لا يحاسب نفسه. وقال مجاهد : هي التي تلوم على ما فات وتندم، فتلوم نفسها على الشر لم فعلته وعلى الخير لم لا تستكثر منه.(٤)

وعن الحسن أنه قال في قوله ــ تعالى ــ :(وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) قال: ليس أحد من أهل السموات والأرض إلا يلوم نفسه يوم القيامة.(٥)

وجواب القسم فى قول الجمهور أنه محذوف على تقدير ليبعثن، ويدل عليه (أَيَحْسَبُ الإنسان أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ)(٦)، فجواب القسم مأخوذ من قوله : (أَيَحْسَبُ الإنسان أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ) والتقدير: لنجمعن عظام الإنسان أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه.(٧)

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٩٢/١٩

(٢) الكشف والبيان لأحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري ٨١/١٠ ــ تحقيق : الإمام أبي محمد بن عاشور ــ نشر دار إحياء التراث العربي ــ بيروت – لبنان ــ ١٤٢٢ هـ ــ ٢٠٠٢ م ــ ط أولى

(٣) التبيان لابن القيم ص٢٥

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٩٢/١٩ــ٩٣

(٥) تفسير القرآن العظيم ٢٧٥/٨

(٦) سورة القيامة، آية: ٣

(٧) مفاتيح الغيب ١٩١/٣٠ــ١٩٢، التحرير والتنوير ٣٣٨/٢٩

وهناك وجه آخر فى جواب القسم، هو قوله (بَلَى قَادِرِينَ).[١]

قال ابن كثير: والمقسوم عليه هاهنا هو إثبات الميعاد، والرد على ما يزعمه الجهلة من العباد من عدم بَعث الأجساد.[٢]

والتناسب بين ما أقسم الله ــ تعالى ــ به وما أقسم عليه فى السورة من أمر المعاد على ما قدره العلماء من الجواب المقدر ظاهر البيان، فالله ــ تعالى ــ يقسم بيوم القيامة على قدرته على بعث الناس وجمع عظامهم وإعادة الحياة إليها مرة أخرى كى يحاسبهم على ما قدموا فى هذا اليوم العظيم. كما ترى التناسب بين هذا القسم مع ما جاء فى السورة ؛ إذ إن السورة مبنية على ما ابتدأت به من القسم، فهى مبنية على أحوال يوم القيامة، وعلى النفس، ولا تكاد تخرج عن ذلك.

فالسورة فيها الحديث عن المعاد الذى هو بداية هذا اليوم فى قوله (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ. بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ)[٣] وفيها الحديث عن سؤال الإنسان الفاجر عن يوم القيامة استبعادا له وتكذيبا به (يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ)[٤] ويأتيه الجواب عن علامات يوم القيامة وما يحدث فى هذا اليوم من العجائب والأهوال وذلك فى قوله (فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ. وَخَسَفَ الْقَمَرُ. وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ. يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ. كَلَّا لَا وَزَرَ. إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ. يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ)[٥].

والقسم بيوم القيامة مناسب لما جاء فى قوله (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ. إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ.وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ. تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ)[٦] حيث ينقسم الناس فى هذا اليوم إلى فريقين فريق السعداء الناظر إلى وجه ربه، وفريق الأشقياء المحجوب من رؤية وجه الله.

كما أن القسم بيوم القيامة فى أولها مناسب لما جاء فى آخرها فى قوله (أَيَحْسَبُ الانسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى).[٧]

---

(١) مفاتيح الغيب ٣٠/١٩٢

(٢) تفسير القرآن العظيم ٨/٢٧٥

(٣) سورة القيامة، الآيتان :٣ــ٤

(٤) سورة القيامة، آية: ٦

(٥) سورة القيامة، الآيات من ٧ــ١٣

(٦) سورة القيامة، الآيات من ٢٢ــ٢٥

(٧) سورة القيامة، آية:٣٦

واقتران النفس اللوامة بيوم القيامة ؛ لأن يوم القيامة هو الذى تنتفع فيه النفس اللوامة التى كانت تلوم صاحبها فى الدنيا وتفوز بالنجاة. قال ابن عاشور: ومناسبة القسم بها مع يوم القيامة أنها النفوس ذات الفوز في ذلك اليوم.(١)

وأما من فسر النفس اللوامة فى الآية بالنفس المؤمنة والفاجرة، فعلى أن النفس المؤمنة تفوز يوم القيامة بلومها لصاحبها فى الدنيا، والفاجرة أكثر ما تلوم صاحبها فى هذا اليوم على ما قصرت وفرطت لما ترى من العذاب والهوان.

قال البقاعى:(اللوامة) أي التي تلوم صاحبها وهي خيرة وشريرة ، فالخيرة تكون سبباً للنجاة فيه، والأخرى تكون سبباً للهلاك فيه ، فإن لامت على الشر أو على التهاون بالخير أنجت ، وإن لامت على ضد ذلك أهلكت... ولهذا جمع بين القيامة وبين اللوامة ؛ لأن الثواب والعقاب للآدمي دون الملائكة والحيوانات العجم ، واللوامة يشتد لومها في ذلك اليوم على عدم الخير أو عدم الزيادة منه.(٢)

مناسبة القسم بالنفس اللوامة مع ما جاء فى السورة :

أقسم الله ــ تعالى ــ فى السورة بالنفس اللوامة، والإنسان يلوم نفسه لأحد سببين:

إما أن يتعجل فيفعل ما لا ينبغي له فعله، فيندم على ذلك فيبدأ يلوم نفسه، لم فعلت ذاك؟ لم لم أترو؟

وإما أن يتراخى عن فعل كان الأولى له أن يفعله، وأن يغتنم الفرصة التي سنحت له، ولكنه قعد عن ذلك مسوفاً ، ففاته نفع كبير، وقد لا تسنح له فرصة، كالتي فاتت، فيبدأ يلوم نفسه. لم تباطأت، لم لم أفعل؟ لم لم أغتنم الفرصة؟ ونحو ذلك.

فالسورة مطبوعة بهذين الطابعين من صفات النفس اللوامة، طابع العجلة التي تدعو إلى الندم واللوم، وطابع التباطؤ وتفويت الفرص الذي يؤدي إلى الندم واللوم أيضاً.

فالسورة مبنية إذن على ما ابتدأت به يوم القيامة، والنفس اللوامة في حاليها: العجلة والتباطؤ.(٣)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٣٣٩

(٢) نظم الدرر ٢١/٨٦

(٣) لمسات بيانية فى نصوص من التنزيل لفاضل صالح السامرائى ص ٢٠٤ــ٢٠٥

وطابع العجلة يبدو فى قوله (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ)[١] وفى قوله (كَلا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ).[٢]

وطابع التباطؤ يتضح فى قوله (بَلْ يُرِيدُ الانسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَه)[٣].

جاء في الكشاف في تفسير قوله ــ تعالى ــ: (ليفجر أمامه) " ليدوم على فجوره فيما بين يديه من الأوقات، وفيما يستقبله من الزمان لا ينزع عنه.

وعن سعيد بن جبير ــ رضي الله عنه ــ يقدم الذنب ويؤخر التوبة، يقول: سوف أتوب، سوف أتوب حتى يأتيه الموت على شر أحواله وأسوأ أعماله"[٤] فالإنسان هنا يسوف التوبة، ويتباطأ عنها، حتى يدركه الموت ويندم على تسويفه وتباطئه، وبهذا يظهر ارتباط الآية بالنفس اللوامة.

مناسبة قوله (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ.....)[٥] الآيات مع ما جاء فى أول السورة.

ذكر الإمام السيوطى فى الإتقان (أن من الآيات التى أشكلت مناسبتها لما قبلها قوله ــ تعالى ــ ((لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ) فإن وجه مناسبتها لأول السورة وآخرها عَسِرٌ جدا)[٦]. ولكن يمكن القول فى مناسبة الآية أن الله ــ تعالى ــ أقسم بيوم القيامة، وأقسم بالنفس اللوامة ومن أبرز سمات النفس اللوامة أن تعجل فى الأمر، ثم تندم عليه، فتبدأ بلوم نفسها على ما فعلت.[٧]

المبحث السادس: الأسرار والعبر فى الاستفتاح بالقسم فى أول سورة المرسلات

اختلف المفسرون اختلافا كبيرا في تفسير هذه الآيات الخمس التى وردت فى أول سورة المرسلات فى قوله ــ تعالى ــ (وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا. فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا. وَالنَّاشِرَاتِ

---

(١) سورة القيامة، آية:١٦

(٢) سورة القيامة، آية:٢٠

(٣) سورة القيامة، آية: ٥

(٤) تفسير الكشاف٤/٦٦١

(٥) سورة القيامة، الآيتان : ١٦ــ١٧

(٦) الإتقان فى علوم القرآن ٢/١١٠

(٧) لمسات بيانية للسامرائى ص ٢٠٢

نَشْرًا. فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرا) فبعضهم حملها جميعا على الرياح، وبعضهم حملها جميعا على الملائكة، وبعض العلماء حمل بعضها على الرياح وبعضها على الملائكة.

فمن العلماء من فسر هذه الكلمات الخمس بالملائكة، فقالوا إن المراد بـــ (والمرسلات) هي الملائكة الذي أرسلهم الله ــ تعالى ــ إما لإيصال النّعمة إلى قوم أو لإيصال النقمة إلى آخرين وقوله ــ تعالى ــ : " عُرْفاً " إما أن يكون العُرْف هو الذي ضد النُّكر، فإن كانوا الملائكة المبعوثين للرحمة، فالمعنى فيهم ظاهر وإن بعثوا للعذاب فذلك العذاب وإن لم يكن معروفاً للكفَّار فإنه معروف للأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ والمؤمنين، أو يكون العرف التَّتابع.

وقوله ــ تعالى ــ :(فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً) فمعناه أن الملائكة عصفوا في طيرانهم كعصف الرياح أو يعصفون بروح الكافر، يقال : عصف بالشيء إذا أباده.

وقوله ــ تعالى ــ :(والنَّاشِرَاتِ نَشْراً) أي : أنهم نشروا أجنحتهم عند انحطاطهم إلى الأرض، أو نشروا الرحمة والعذاب، أو المراد الملائكة الذي ينشرون الكتب التيَ فيها أعمال بني آدم يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً.

وقوله ــ تعالى ــ :(فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً) أي : أنهم يفرقون بين الحق والباطل.

وقوله :(فالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً) أي أنهم يلقون الذِّكرَ إلى الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام.[١]

والفريق الثاني من العلماء قال : إن المراد بهذه الكلمات الخمس : الرياح، أقسم الله ــ تعالى ــ بالرياح عند إرسالها عُرْفاً، ومعنى (عُرْفاً) يتبع بعضها بعضا كعرف الفرس، تقول العرب: الناس إلى فلان عرف واحد: إذا توجهوا إليه فأكثروا. وهو نصب على الحال من وَالْمُرْسَلاتِ أي والرياح التي أرسلت متتابعة.[٢]

(فَالْعاصِفاتِ عَصْفاً) هي الرياح العواصف تأتي بالعصف، وهو ورق الزرع وحطامه، كما قال تعالى:(فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قاصِفاً).[٣]

---

(١) اللباب فى علوم الكتاب ٦٤/٢٠، روح المعانى للآلوسى ١٦٩/٢٩

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٥٤/١٩

(٣) سورة الإسراء، آية: ٦٩.الجامع لأحكام القرآن ١٥٥/١٩

(والنَّاشِرَاتِ نَشْراً) هي الرياح يرسلها الله ــ تعالى ــ نشرا بين يدي رحمته، أي تنشر السحاب للغيث. أو أنها تلقح الأشجار والنبات، فتكون ناشرة. فالنشر بمعنى الإحياء، يقال: نشر الله الميت وأنشره أي أحياه.(١)

وقوله ــ تعالى ــ :(فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً) أي:أنها تفرق بين أجزاء السحاب، أو أنها عند هبوبها تفرّق الخلق فمن مقرّ خاضع، ومن منكر جاحد.(٢)

وقوله ــ تعالى ــ: (فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً) أي: أن العاقل إذا شاهد هبوب تلك الرياح التي تقلع القِلاَع وتهدم الصخور والجبال، وترفع أمواج البحار تمسَّك بذكر الله ــ تعالى ــ والتجأ إلى إعانة الله ــ تعالى ــ فصارت تلك الرياح كأنها ألقت الذِّكر والإيمان والعبودية في القلب.(٣)

قال ابن عجيبة : أو الرياح المرسلات متتابعة، فتعصف عصفاً، وتنشر السحاب في الجو نشراً، وتفرّق السحاب فرقاً على المواضع التي أراد الله إن يُمطر عليها، فيلقين ذكراً، أي: موعظة وخوفاً عند مشاهدة آثار قدرته ــ تعالى ــ، إمّا عذراً للمعتذرين إلى الله ــ تعالى ــ برهبتهم وتوبتهم، وإمّا نُذراً للذين يكفرونها وينسبونها إلى الأنواء.(٤)

وبهذا ترى أن المفسرين اختلفوا فى المراد بهذه الكلمات التى أقسم الله ــ تعالى ــ بها فى سورة المرسلات وإن كنت أميل فى ترجيح هذه الكلمات إلى ما استظهره ابن جزى صاحب التسهيل حيث قال : والأظهر في (المرسلات. والعاصفات) أنها الرياح لأن وصف الرياح بالعصف حقيقة والأظهر فى (الناشرات، والفارقات) أنها الملائكة لأن قوله (فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً) المذكورة بعدها في الملائكة ولم يقل أحد أنها الرياح ؛ ولذلك عطف المتجانس بالفاء فقال (والمرسلات فالعاصفات) ثم عطف ما ليس من جنسها بالواو فقال (والناشرات) ثم عطف بالفاء.(٥) وهذا هو الأصح والأظهر. والله أعلم.

---

(١) مفاتيح الغيب ٣٠/٢٣٣، الجامع لأحكام القرآن ١٩/١٥٥

(٢) مفاتيح الغيب ٣٠/٢٣٣ــ٢٣٤

(٣) مفاتيح الغيب ٣٠/٣٣٤

(٤) البحر المديد ٨/٣١٥

(٥) التسهيل لعوم التنزيل لابن جزى الكلبى ٣/٣٢٤ــ٣٢٥ تحقيق محمد عبد المنعم اليونسى، إبراهيم عطوة عوض ــ نشر أم القرى للطباعة ــ القاهرة ــ مصر.

وقال الرازى : يحتمل أن الاثنين الأولين هما الرياح، فقوله :(وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا. فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا) هما الرياح، والثلاثة الباقية الملائكة ؛ لأنها تنشر الوحي والدين، ثم لذلك الوحي أثران أحدهما : حصول الفرق بين المحق والمبطل، والثاني : ظهور ذكر الله في القلوب والألسنة، والذي يؤكده أنه قال : (وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا. فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا) عطف الثاني على الأول بحرف الفاء، ثم ذكر الواو فقال : (وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا) وعطف الاثنين الباقيين عليه بحرف الفاء، وهذا يقتضي أن يكون الأولان ممتازين عن الثلاثة الأخيرة.[١]

أما الحكمة فى الجمع بين الرياح والملائكة فى القسم، فتتبين لنا مما يلى :

قال ابن القيم: إن القسم فى هذه السورة وقع على النوعين: الرياح، والملائكة. ووجه المناسبة : أن حياة الأرض والنبات وأبدان الحيوان بالرياح، فإنها من روح الله، وقد جعلها الله ــ تعالى ــ نشورا، وحياة القلوب والأرواح بالملائكة.وبهذا النوعين يحصل نوعا الحياة.[٢]

وقال الرازى: فإن قيل: وما المجانسة بين الرياح وبين الملائكة حتى يجمع بينهما في القسم ؟ قلنا : الملائكة روحانيون، فهم بسبب لطافتهم وسرعة حركاتهم كالرياح.[٣]

تعيين المقسم عليه والمناسبة بينه وبين المقسم به:

ففى هذه الآيات أقسم ــ تعالى ــ بخمسة أشياء، تنبيها على جلالة قدر المقسم به، وتعظيما لشأن المقسم عليه، فأقسم بالرياح التي تحمل الرحمة والعذاب، وتسوق للعباد الخير أو الشر، وبالملائكة الأبرار، الذين يتنزلون بالوحي للإعذار والإنذار، أقسم على أن أمر القيامة حق لا شك فيه، وأن ما أوعد الله ــ تعالى ــ به المكذبين، من مجيء الساعة والثواب والعقاب، كائن لا محالة، فلا ينبغي الشك والامتراء.. ثم بين ــ تعالى ــ وفصل وقت وقوع ذلك فقال (فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ).[٤]

قال ابن كثير: وقوله: (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ) هذا هو المقسم عليه بهذه الأقسام، أي: ما وعدتم به من قيام الساعة، والنفخ في الصور، وبعث الأجساد وجمع الأولين

---

(١) مفاتيح الغيب ٣٠/٢٣٥

(٢) التبيان ص ٢٢٨

(٣) مفاتيح الغيب ٣٠/٢٣٥

(٤) صفوة التفاسير٣/٥٠٠

والآخرين في صعيد واحد، ومجازاة كل عامل بعمله، إن خيرا فخير وإن شـرا فشـر، إن هذا كله (لَوَاقِع) أي: لكائن لا محالة.(١)

قال الشنقيطى : قوله ــ تعالى ــ : (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِـعٌ) هـو المقسـم عليـه، والواقع أن بين كل قسم ومقسم عليه مناسبة ارتباط في الجملة غالباً، والله ــ تعـالى ــ يقسم بما شاء على ما شاء لأن المقسم به من مخلوقاته فاختيار ما يقسم به هنا أو هناك غالباً يكون لنوع مناسبة، ولو تأملناه هنا، لوجدنا المقسم عليه هو يـوم القيامـة، وهـم مكذبون به، فأقسم لهم بما فيه إثبات القدرة عليه، فالرياح عرفاً تأتي بالسحاب تنشره ثم يأتي المطر، ويحيي الله الأرض بعد موتها. وهذا من أدلة القدرة على البعث، والعاصـفات منها بشدة، وقد تقتلع الأشجار وتهدم البيوت مما لا طاقة لهم بها ولا قدرة لهـم عليهـا، وما فيها من الدلالة على الإهلاك والتدمير، وكلاهما دال على القدرة على البعث. ثم تـأتي الملائكة بالبيان والتوجيه والإعذار والإنذار(إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ). وقولـه ــ تعـالى ــ: (فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ وَإِذَا السَّمَآءُ فُرِجَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ) كلها تغييرات كونية من آثـار ذلك اليوم الموعود.(٢)

بينما يذكر الإمام قال ابن القيم مناسبة ما أقسم الله ــ تعالى ــ به مع ما جاء فـى السورة فيقول: وتأمل كيف وقع القسم فى هذه السورة على المعـاد، والحيـاة الدائمـة الباقية، وحال السعداء والأشقياء فيها، وقررها بالحياة الأولى فى قوله ــ تعالى ــ (أَلَـمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ)(٣) فذكر فيها المبدأ والمعاد، وأخلص السورة لذلك، فحَسُن الإقسام بما يحصل به نوعا الحياة المشاهَدة، وهو الرياح، والملائكة. فكان فى القسم بذلك أبـين دليل، وأظهر آية على صحة ما أقسم عليه وتصمنته السورة. ولهذا كان المكذب بعد ذلك فى غاية الجحود والعناد والكفر والتكذيب، فاستحق الويل بعد الويـل، فتضـاعف عليـه الويل، كما تضاعف منه الكفر والتكذيب.(٤)

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢٩٧/٨

(٢) أضواء البيان٤٠١/٨

(٣) سورة المرسلات، آية: ٢٠

(٤) التبيان ٢٢٩

فالكلام السابق الذى ذكره الإمام ابن القيم فيه وجوه للمناسبة بين ما أقسم الله ــ تعالى ــ به فى السورة من الرياح والملائكة مع ما جاء فى السورة كلها.من أمر المعاد والمبدأ واستحقاق المكذب المعاند الويل الذى تكرر إيعاده به فى السورة كثيرا جراء كفره وتكذيبه.

المبحث السابع: الأسرار والعبر فى الاستفتاح بالقسم فى أول سورة النازعات

افتتح الله ــ سبحانه ــ هذه السورة بالقسم الإلهى بالنازعات فى قوله ــ تعالى ــ (وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا) وهم الملائكة الذين ينزعون أرواح بنى آدم، ولم يرد هذا اللفظ بهذه الصيغة فى غيرها من سور القرآن.

فالنازعات : الملائكة تنزع أرواح الكفار. فالنزع هو إخراج الروح من الجسد، شبه بنزع الدلو من البئر أو الركية، ومنهم قولهم في المحْتضَر هو في النزع. وأجريت صفتهم على صيغة التأنيث بتأويل الجماعة أو الطوائف كقوله ــ تعالى ــ :(قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا).[١]

غرقاً : أي تنزع أرواحهم من أجسادهم بشدّة كما يغرق النازع في القوس ليبلغ بها غاية المدّ بعدما نزعها، حتى إذا كادت تخرج ردّها إلى جسده فهذا عملهم بالكفار.[٢]

وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً : والنشط : الجذب بسرعة ومنه الأنشوطة : عقدة يسهل انحلالها إذا جذبت مثل عقدة التكة. الملائكة تنشط أرواح المؤمنين أي : تسلها برفق فتقبضها كما ينشط العقال من يد البعير إذا حل عنه. وفي الحديث : (فَكَأَنَّمَا نُشِطَ مِنْ عِقَالٍ).[٣] وعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ : "هي أنفس المؤمنين تنشط للخروج عند الموت لما ترى من الكرامة ؛ لأنّ الجنة تعرض عليهم قبل الموت".[٤]

فقوله ــ تعالى ــ :(وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا. وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا) قسم بملك الموت وأعوانه إلا أن الأول إشارة إلى كيفية قبض أرواح الكفار، والثاني إشارة إلى كيفية قبض أرواح

---

(١) سورة الحجرات، آية:١٤، وانظر السراج المنير ٣٤٦/٤

(٢) السراج المنير ٣٤٦/٤

(٣) صحيح البخارى، كتاب : الإجارة، باب: مَا يُعْطَى فِي الرُّقْيَةِ عَلَى أَحْيَاءِ الْعَرَبِ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ ص ٤٦٤/٤٦٥.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٩١/١٩

المؤمنين. فخصص النشط بالمؤمن والنزع بالكافر لما بين النزع والنشط من الفرق فالنزع جذب بشدة، والنشط جذب برفق ولين.(١)

والسابحات سبحاً : أي الملائكة تسبح من السماء بأمره أي : ينزلون من السماء مسرعين كالفرس الجواد. يقال له : سابح إذا أسرع في جريه.(٢)

فالسابقات سبقاً :أي الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة.(٣)

فالمدبرات أمراً : أي الملائكة تدبر أمر الدنيا، أي : تنزل بتدبيره.(٤)

قال الرازي : ويمكن الجواب بأنها لما أمرت سبحت فسبقت فدبرت ما أمرت بتدبيره، فتكون هذه أفعالاً يتصل بعضها ببعض، وقال ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ : المدبرات هي الملائكة وكلوا بأمور عرّفهم الله ــ تعالى ــ العمل بها. قال عبد الرحمن بن سابط : يدبر الأمر في الدنيا أربعة من الملائكة : جبريل وميكائيل وملك الموت وإسرافيل ــ عليهم السلام ــ، فأما جبريل فوكل بالرياح والجنود وأما ميكائيل فوكل بالقطر والنبات، وأما ملك الموت فوكل بقبض الأرواح، وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم.(٥)

قال الشوكانى : أقسم ــ سبحانه ــ بهذه الأشياء التى ذكرها، وهى الملائكة التى تنزع أرواح العباد عن أجسادهم، كما ينزع النازع القوس فيبلغ بها غاية المد، وكذا المراد بالناشطات والسابحات، والسابقات، والمدبرات، يعنى الملائكة.(٦)

وقد اقتصرت على هذا الرأى الذى ذهب إلى أن المراد من هذه الكلمات طوائف الملائكة على اختلاف وظائفهم، إذ رأيته أنه أرجح ما قيل، ويدل على رجحانه أنه قول الجمهور من الصحابة، والتابعين، ومن بعدهم.

واختلف فى جواب القسم فمن العلماء من ذهب إلى أنه محذوف كالزمخشرى حيث قال : والمقسم عليه محذوف، وهو لتبعثن لدلالة ما بعده عليه من ذكر القيامة.(٧)

---

(١) مفاتيح الغيب ٣١/٢٦

(٢) السراج المنير ٤/٣٤٦

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٩/١٩٣

(٤) السراج المنير ٤/٣٤٧

(٥) مفاتيح الغيب ٣١/٣١، السراج المنير ٤/٣٤٧

(٦) فتح القدير ٥/٣٧٢

(٧) تفسير الكشاف ٤/٦٩٣

وقال الزركشى : وحذف جواب القسم لعلم السامع المراد منه، وتقديره لتبعثن ولتحاسبن بدليل إنكارهم للبعث في قولهم (لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ)[١].

ومن العلماء من رأى أن جواب القسم مذكور فى السورة، ورأوا أن القسم وقع على قوله (إِنَّ فِى ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى)[٢] والمعنى فيما اقتصصت من ذكر يوم القيامة وذكر موسى ــ عليه السلام ــ وفرعون. قال ابن الانباري : وهذا قبيح لأن الكلام قد طال.[٣]

والراجح فى جواب القسم هو القول الأول القائل بأنه محذوف ؛ لدلالة ما بعده عليه. قال أبو حيان: والمختار في جواب القسم أن يكون محذوفاً وتقديره : لتبعثن لدلالة ما بعده عليه.

فالقسم هنا بملائكة الموت التى تنزع أرواح الكافرين بشدة، مناسب لتذكير المشركين والغافلين بأمر المعاد الذى ينتظرهم ليحاسبوا على ما أجرموا، وعلى إيثارهم الحياة الدنيا. كما أن القسم بملائكة الموت التى تنزع أرواح المؤمنين بيسر وسهولة مناسب لما فى السورة إذا إنهم استحقوا هذا بسبب خوفهم مقام ربهم، وإيثارهم ما عند الله على العاجلة. (فَأَمَّا مَنْ طَغَى. وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى. وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى. فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى).[٤]

فالله ــ تعالى ــ أقسم فى هذه الآيات بالملائكة لأنها من أشرف المخلوقات، وخصها بهذا الوصف الذي هو من تصرفاتها تذكيراً للمشركين إذ هم في غفلة عن الآخرة وما بعد الموت ولأنهم شديدٌ تعلقهم بالحياة كما قال ــ تعالى ــ لمَّا ذكر اليهود :(وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا)[٥] فالمشركون مَثَل في حب الحياة، ففي القسم بملائكة قبض الأرواح عظة لهم وعبرة. والقسَم على هذا الوجه مناسب للغرض الأهم من السورة وهو إثبات البعث لأن الموت أول منازل الآخرة فهذا من براعة الاستهلال.[٦]

---

(١) سورة النازعات، آية:١٠. وانظر البرهان فى علوم القرآن ١٩٢/٣

(٢) سورة النازعات، آية: ٢٦

(٣) البحر المحيط ٤١٢/٨

(٤) سورة النازعات، الآيات من ٣٧ــ٤٠

(٥) سورة البقرة، آية: ٩٦

(٦) التحرير والتنوير ٦٢/٣٠

وقوله ــ تعالى ــ :(يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ). هما النفختان في الصور، الراجفة هي الأولى، والرادفة هي الثانية، كما يدل عليه قوله ــ تعالى ــ :(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ).

المبحث الثامن:الأسرار والعبر فى الاستفتاح بالقسم فى أول سورة البروج

بدأت هذه السورة بالقسم بقوله ــ تعالى ــ (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ) والبروج : هي المنازل التي عرفتها العرب، وهي اثنا عشر على ما قسمته، وهي التي تقطعها الشمس في سنة، والقمر في ثمانية وعشرين يوماً.(١)

قوله (وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ) هو يوم القيامة بإجماع المفسرين.(٢) حيث وعد الله ــ تعالى ــ به الفريقين من المؤمنين والكافرين.وهو قسم ثان.

قوله ــ تعالى ــ (وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ) : قسم ثالث ببعض مخلوقاته ــ تعالى ــ. والشاهد اسم فاعل من المشاهدة بمعنى الرؤية، فالشاهد هو الرائى، أو المشهود عليه بأنه حق.

فالمراد بالشاهد : من يحضر ذلك اليوم من الخلائق المبعوثين، وما يراه فيه من عجائب وأهوال من المشاهدة بمعنى الرؤية والحضور، أو من يشهد فى ذلك اليوم على غيره، من الشهادة على الخصم.(٣)

قال الرازى : وأما الشاهد والمشهود، فقد أضطرب أقاويل المفسرين فيه، والقفال أحسن الناس كلاماً فيه، قال : إن الشاهد يقع على شيئين أحدهما : الشاهد الذي تثبت به الدعاوى والحقوق، والثاني : الشاهد الذي هو بمعنى الحاضر، كقوله :(عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ)(٤) ويقال : فلان شاهد وفلان غائب، وحمل الآية على هذا الاحتمال الثاني أولى.(٥)

---

(١) البحر المحيط ٤٤٣/٨

(٢) أضواء البيان ٤٧٦/٨

(٣) التفسير الوسيط أ د/ محمد سيد طنطاوى ٤٨٤/١٥

(٤) سورة الأنعام، آية :٧٣

(٥) مفاتيح الغيب ١٠٤/٣١

ومما يدل على أن المشهود هو يوم القيامة، والشاهد هو الجمع الذي يحضرون فيه، وجوه الأول : أنه لا حضور أعظم من ذلك الحضور، فإن الله ــ تعالى ــ يجمع فيه خلق الأولين والآخرين من الملائكة والأنبياء والجن والإنس.

والثاني : أنه ــ تعالى ــ ذكر اليوم الموعود، وهو يوم القيامة، ثم ذكر عقيبة : (وشاهد وَمَشْهُودٍ) وهذا يناسب أن يكون المراد بالشاهد من يحضر في ذلك اليوم من الخلائق وبالمشهود ما في ذلك اليوم من العجائب.

الثالث : أن الله ــ تعالى ــ وصف يوم القيامة بكونه مشهوداً في قوله : (فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهِدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ)[١]، وقال : (ذلك يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاس وذلك يَوْمٌ مَّشْهُودٌ)[٢]، وقال : (يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ)[٣]، وقال :(إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحدة فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ).[٤]

إذاً فأقرب الأقوال للصواب : أن المراد بالشاهد هنا : الحاضر فى ذلك اليوم العظيم وهو يوم القيامة، والرائى لأهواله وعجائبه. وأن المراد بالمشهود : ما يشاهد فى ذلك اليوم من أحوال يشيب لها الولدان.

قال ابن عاشور: في افتتاح السورة بهذا القسم تشويق إلى ما يرد بعده، وإشعار بأهمية المقسم عليه، وهو مع ذلك يَلفت ألبابَ السّامعين إلى الأمور المقسم بها، لأن بعضها من دلائل عظيم القدرة الإلهية المقتضية تفرد الله ــ تعالى ــ بالإلهية وإبطالَ الشريك، وبعضها مذكِّر بيوم البعث الموعود، ورمز إلى تحقيق وقوعه، إذ القسم لا يكون إلا بشيء ثابت الوقوع.[٥]

فقد أقسم الله ــ تعالى ــ بيوم القيامة للتنبيه على القدرة إذ كان هو يوم الفصل والجزاء ويوم تفرد الله ــ تعالى ــ فيه بالملك والحكم.

---

(١) سورة مريم، آية: ٣٧

(٢) سورة هود، آية: ١٠٣

(٣) سورة الإسراء، آية:٥٢

(٤) سورة يس، آية:٥٣، وانظر مفاتيح الغيب ١٠٥/٣١

(٥) التحرير والتنوير ٢٣٧/٣٠

وقد أقسم الله ــ تعالى ــ فى هذه السورة بثلاثة أشياء فأقسم بالسماء ذات البروج، وباليوم الموعود، وبالشاهد والمشهود، وهناك ارتباط وثيق بين هذه الثلاثة المقسم بها يوضحه لنا الإمام ابن القيم فى قوله : فإن قيل فما وجه الارتباط بين هذه الثلاثة المقسم بها؟

قيل : هى ــ بحمد الله ــ فى غاية الارتباط، والإقسام بها متناول لكل موجود فى الدنيا والآخرة وكل آية منها مستقلة دالة على ربوبيته وإلهيته.

فأقسم بالعالم العلوى، وهو السماء وما فيها من البروج، التى هى أعظم الأمكنة وأوسعها.

ثم أقسم بأعظم الأيام وأجلها قدرا، الذى هو مظهر ملكه، وأمره، ونهيه، وثوابه، وعقابه ومجمع أوليائه وأعدائه، والحكم بينهم بعلمه وعدله.

ثم أقسم بما هو أعم من ذلك كله، وهو (الشاهد) و(والمشهود) وناسب هذا القسم ذكر أصحاب الأخدود الذين عذبوا أولياءه وهم شهود على ما يفعلون بهم، والملائكة شهود عليهم بذلك، والأنبياء، وجوارحهم تشهد به عليهم.(١)

قوله ــ تعالى (قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ) الأُخْدودُ: الشِّقُّ في الأرضِ. قال الزمخشري: والأُخْدودُ: الخَدُّ في الأرضِ، وهو الشق.(٢)

وقال الراغب: "الخَدُّ والأُخْدُوْدُ شِقٌّ في أرضٍ، مستطيلٌ غائصٌ. وجمع الأخدود: أخاديدُ. وأصلُ ذلك مِن خَدَّيْ الإنسان، وهما ما اكتنفا الأَنْفَ عن اليمينِ والشمالِ، والخَدُّ يُستعار للأرضِ ولغيرها كاستعارةِ الوجهِ. وقال غيره: سُمِّيَ الخَدُّ خَدّاً لانَّ الدموعَ تَخُدُّ فيه أخاديدَ، أي: مجاريَ.(٣)

وهذا خبر عن قوم من الكفار عَمَدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله ــ عز وجل ــ فقهروهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم، فأبوا عليهم، فحفروا لهم في الأرض أخدُودًا

---

(١) التبيان لابن القيم ص١٤١.

(٢) تفسير الكشاف للزمخشرى٧/٢٦٤

(٣) المفردات ١/٢٨٨، الدر المصون فى علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبى ٦/٥٠٣ نشر دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان ــ ط أولى ١٤١٤ه ــ ١٩٩٤م.

وأججوا فيه نار وأعدوا لها وقودًا يسعرونها به، ثم أرادوهم فلم يقبلوا منهم، فقذفوهم فيها.(١)

فأصحاب الأخدود هم الذين حفروا هذا الأخدود، وألقوا فيه المؤمنين وعذبوهم وفتنوهم، حتى يرجعوا عن دينهم.

واختلف فى جواب القسم فمن العلماء من ذهب إلى أن جواب القسم مقدر، فقال الزمخشري ولم يذكر غيره : هو محذوف يدل عليه قوله : (قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ) كأنَّه قيل : أقسم بهذه الأشياء أن كفار قريش ملعونون، كما لعن أصحاب الأخدود ثم قال : " قُتِل " دعاءٌ عليهم كقوله ــ تعالى ــ: (قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ).(٢) وقيل : التقدير : لتبعثن.(٣)

قال ابن القيم: والأحسن أن يكون هذا القسم مستغنيا عن الجواب ؛ لأن القصد التنبيه على أن المُقْسَم به، وأنه من آيات الرب العظيمة. ويبعد أن يكون الجواب : (قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ) لأن ذلك دعاء وطلب، ولكنه ــ سبحانه ــ ذكر حال أعدائه وأوليائه، فذكر أصحاب الأخدود الذين فتنوا أولياءه، وعذبوهم بالنار ذات الوقود.(٤)

ومن العلماء من ذهب إلى أن جواب القسم مذكور وهو قوله ــ تعالى ــ (قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ). وهذا ما رجحه أبو حيان فى البحر،(٥) والسمين الحلبى فى الدر المصون حيث قال : قوله: (قُتِلَ) هذا جوابُ القسمِ على المختارِ، وإنما حُذِفَتِ اللامُ، والأصلُ: لَقُتِلَ، وإنما حَسُن حَذْفُها للطُّولِ.(٦)

ومناسبةُ القسم لما أقسم عليه أن المقسم عليه تضمن العبرة بقصة أصحاب الأخدود، ولما كانت الأخاديد خُطوطاً مجعولة في الأرض مستَعِرَة بالنار أقسم على ما تضمنها بالسماء بقيد صفة من صفاتها التي يلوح فيها للناظرين في نجومها ما سماه العرب بروجاً وهي تشبه دارات متلألئة بأنوار النجوم اللامعة الشبيهة بتلهب النار.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣٦٦/٨

(٢) سورة عبس، آية: ١٧

(٣) تفسير الكشاف ٧٣٠/٤

(٤) التبيان ص ١٤٣

(٥) البحر المحيط ٤٤٣/٨

(٦) الدر المصون ٥٠٢/٦

والقسم بالسماء بوصف ذات البروج يتضمن قسماً بالأمرين معاً لتلتفت أفكارُ المتدبرين إلى ما في هذه المخلوقات وهذه الأحوال من دلالة على عظيم القدرة وسعة العلم الإلهي إذ خلقها على تلك المقادير المضبوطة لينتفع بها الناس في مواقيت الأشهر والفصل. كما قال ــ تعالى ــ في نحو هذا :(ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ).[١]

فالقسم بالسماء وبكونها ذات بروج دال على عظيم قدرة الله ــ تعالى ــ، وعلى تفرده بالإلوهية إذا إنه الخالق لها وهو القادر على جمع الناس ليوم القيامة ذلك اليوم الموعود.

وأما مناسبة القسم باليوم الموعود فلأنه يوم القيامة باتفاق أهل التأويل لأن الله ــ تعالى ــ وعد بوقوعه قال ــ تعالى ــ:(ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ)[٢] مع ما في القَسم به من إدماج الإيماء إلى وعيد أصحاب القصة المقسَم على مضمونها، ووعيد أمثالهم المعرَّض بهم.[٣]

ففى القسم بيوم القيامة الذى هو يوم المعاد إشارة إلى ما ينتظر هؤلاء الذين عذبوا أولياء الله ــ من أتباع محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وممن عذب فى الأخدود ــ من العذاب الذى أعده الله ــ تعالى ــ لهؤلاء المعذبين من الفريقين.

ومناسبة القسم بـ (وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ) قريبة من مناسبة القَسم باليوم الموعود، فهو إشارة إلى أن هذا اليوم يشهده كل الخلق، فيشاهدون ما يوقعه الله ــ تعالى ــ بالمعذبين الذين عذبوا أولياء الله من المؤمنين. ولك أن تلحظ هذه المقابلة فى هذا الجزاء الذى سيلقاه هؤلاء المعذبين، فكما أنهم هم ومن شاركوهم هذا التعذيب فى الدنيا كانوا شهودا حاضرين هذا التعذيب، فالله ــ تعالى ــ يشهد كل الخلق ويحضرهم تعذيب هؤلاء الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات، وهذا ما جاء في المقسم به (وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ) والمقسم عليه فى قوله :(وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ).

---

(١) سورة المائدة: آية ٩٧، وانظر التحرير والتنوير ٣٠/٢٣٧ ــ٢٣٨

(٢) سورة المعارج : آية :٤٤

(٣) التحرير والتنوير ٣٠/٢٣٨

المبحث التاسع: الأسرار والعبر فى الاستفتاح بالقسم فى أول سورة الطارق.

افتتحت سورة الطارق بالقسم بالسماء وبالكواكب المضيئة ليلا على أن كل إنسان محفوظ بالملائكة الأبرار، ثم أقامت الدليل على إمكان البعث وإثبات قدرة الله ــ تعالى ــ على إحياء الخلائق بعد الموت والفناء، بخلق الإنسان أول مرة من تراب ثم من نطفة.

وقوله ــ تعالى ــ: (وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ) قسمان : "السماء" قسم، و"الطارق" قسم.

والطارق : النجم، اسم جنس، سمي بذلك لأنه يطرق ليلا، ومنه الحديث : "نهى النبي صلى اللّه عليه وسلم ــ أن يَطْرُقْ الرَّجُلُ أَهْلَهُ لَيْلاً حَتَّى تَمْتَشِطَ الشَّعِثَةُ[١] وَتَسْتَحِدَّ الْمُغِيبَةُ[٢]. [٣]

والعرب تسمي كل قاصد في الليل طارقا. يقال : طرق فلان إذا جاء بليل. وقد طرق يطرق طروقا، فهو طارق.[٤]

وأصل الطرق الدق، ومنه سميت المطرقة، وسمي النجم طارقاً ؛ لأنه يطرق الجني أي : يقتله.[٥]

فقد أقسم الله بالسماء، وبالنجم الطارق لعظم أمرهما، وكبر خلقهما كما في قوله :(فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ. وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ).[٦]

قال الخطيب الشربيني : وقوله ــ تعالى ــ: (وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ) قسم أقسم الله ــ تعالى ــ به، وقد أكثر الله ــ تعالى ــ في كتابه العزيز ذكر السماء والشمس والقمر ؛ لأنّ أحوالها في أشكالها وسيرها ومطالعها ومغاربها عجيبة. ولما كان الطارق يطلق على غير النجم أبهمه أوّلاً، ثم عظم القسم به بقوله ــ تعالى ــ (وما أدراك) أي : أعلمك يا

---

(١) الشعثة هي: التي شعرها متفرق غير مرتب وغير منظم، فإنها تستعد بمشطه وتسريحه.

(٢) الاستحداد استعمال الحديدة في شعر العانة، وهو ازالته بالموسى. والمراد هنا ازالته كيف كانت والمغيبة بضم الميم وكسر الغين وإسكان الياء ــ هي التي غاب عنها زوجها. شرح النووي على صحيح مسلم ١٠/٥٤ نشر دار إحياء التراث العربى ــ بيروت ــ ط ثانية ــ ١٣٩٢ه.

(٣) السنن الكبرى للبيهقى، باب : لاَ يَطْرُقُ أَهْلَهُ لَيْلاً لَكِنْ يَقْدَمُ غُدْوَةً أَوْ عَشِيَّةً ٢/٣٨٥ وقال : أخرجاه فى الصحيح من حديث شعبة.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢

(٥) السراج المنير ٤/٣٧٧

(٦) سورة الواقعة، الآيتان: ٧٥ــ٧٦. أضواء البيان للشنقيطى ٨/٤٩٢

أشرف خلقنا، وإن حاولت معرفة ذلك وبالغت في الفحص عنه (ما الطارق)...وفيه تعظيم لشأن الطارق.[١]

ثم فسر ــ سبحانه ــ الطارق بقوله ــ تعالى ــ: (النجم الثاقب) أي : المضيء لثقبه الظلام بضوئه فينفذ فيه كما قيل : دُرِّيّ لأنه يدرؤه، أي : يدفعه، والمراد جنس النجوم أو جنس الشهب التي يرجم بها.[٢]

قوله ــ تعالى ــ (إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ) هذا جواب القسم. أي قسما بالسماء وبالنجم الثاقب، ما كل نفس إلا عليها من اللَّه حافظ، يحرسها من الآفات، وهم الحفظة من الملائكة الذين يحفظون عليها عملها وقولها وفعلها، ويحصون ما تكسب من خير وشر كما قال ــ تعالى ــ: (لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ)[٣] والحافظ على الحقيقة هو اللَّه ــ عزّ وجلّ ــ، وحفظ الملائكة: من حفظه لأنه بأمره.

وروي عن النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: (وكل بِالْمُؤمنِ مائَة وَسِتُّونَ ملكا يَذبُّونَ عَنهُ كَمَا يذب عَن قَصْعَة الْعَسَل الذُّبَاب ولَو وكل العَبْد إِلَى نَفسه طرفَة عين لَاخْتَطَفَتْهُ الشَّيَاطِين).[٤]

فالله ــ تعالى ــ لما أقسم بالسماء التى ينزل منها الخير والشر، وبالنجم الذى يقتل به الجنى حيث جاء فى كثير من آيات القرآن أن الله ــ تعالى ــ زين السماء الدنيا بالنجوم وجعلها مصابيح لتضئ لأهل الأرض ولتكون رجوما للشياطين فقال ــ تعالى ــ (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ)[٥]، وقال (إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ. وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ. لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ. دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ. إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ)[٦] ناسب ذلك الحديث

---

(١) السراج المنير ٣٧٧/٤

(٢) المصدر السابق.

(٣) سورة الرعد : آية ١١

(٤) المعجم الكبير للطبرانى ١٦٧/٨ وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٤٢٥/٧، وقال : رواه الطبرانى وفيه عفير بن معدان وهو ضعيف.

(٥) سورة الملك، آية:٥

(٦) سورة الصافات، الآيات من ٦ــ١٠

عن حفظ الإنسان وبيان نعمة الله ــ تعالى ــ فى أن جعل له حفظة يحفظونه من الشرور والآفات وحفظة يحفظون عليه أعماله، التى ستعرض عليه يوم البعث، ويدل على هذا أن السورة فيها الحديث عن بيان قدرة الله ــ تعالى ــ على بعث الإنسان وإعادته، المستدل عليه ببدء خلق الإنسان من ماء دافق. (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ. خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ. يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ. إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ. يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ).(١)

قال الآلوسى : وجواب القسم قوله ــ تعالى ــ: (إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ) وما بينهما اعتراض جىء به لما ذكر من تأكيد فخامة المقسم به المستتبع لتأكيد مضمون الجملة المقسم عليها.(٢)

فالمقسم عليه ــ ههنا ــ حال النفس الإنسانية، والاعتناء بها، وإقامة الحفظة عليها، وأنها لم تترك سدى، بل قد أُرصد عليها من يحفظ عليها أعمالها ويحصيها، فأقسم ــ سبحانه ــ أنه ما من نفس إلا عليها حافظ من الملائكة يحفظ عملها وقولها، ويحصى ما تكسب من خير أو شر.(٣)

قال ابن عاشور: وجواب القسم هو قوله : (إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ) جُعل كناية تلويحية رمزية عن المقصود. وهو إثبات البعث فهو كالدليل على إثباته، فإن إقامة الحافظ تستلزم شيئاً يحفظه وهو الأعمال خيرُها وشرُّها، وذلك يستلزم إرادة المحاسبة عليها والجزاء بما تقتضيه جزاء مُؤخراً بعد الحياة الدنيا لئلا تذهب أعمال العاملين سدى، وذلك يستلزم أن الجزاء مؤخر إلى ما بعد هذه الحياة إذ المُشَاهَدُ تخلُّف الجزاء في هذه الحياة بكثرة، فلو أهمل الجزاء لكان إهماله منافياً لحكمة الإله الحكيم مبدع هذا الكون كما قال : (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)(٤) وهذا الجزاء المؤخر يستلزم إعادة حياة للذوات الصادرة منها الأعمالُ. فهذه لوازم أربعة بها كانت الكناية تلويحية رمزية. وقد حصل مع هذا الاستدلال إفادةُ أن على الأنفس حفظةً فهو إدماج.(٥)

---

(١) سورة الطارق، الآيات من ٥ ــ ٩

(٢) روح المعانى ٣٠/٩٥

(٣) التبيان لابن القيم ص ١٥٨

(٤) سورة المؤمنون، آية : ١١٥

(٥) التحرير والتنوير ٣٠/٢٦٠

فابن عاشور يرى أن الغرض الأصلى فى قسم الله ــ تعالى ــ بجعل على الإنسان حفظة هو الاستدلال بذلك على إثبات البعث، فالله ــ تعالى ــ أوكل حفظة يحفظون على الإنسان أعماله ويسجلونها عليه، فهو يفسر ما جاء هنا بقوله ــ تعالى ــ (كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ. وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ. كِرَامًا كَاتِبِينَ. يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ)[١] وما جعل هذا الحفظ إلا لإثبات هذه الأعمال عليه يوم أن تعرض عليه فى يوم البعث، ومع إثبات هذا الغرض فيه بيان أن الله ــ تعالى ــ يحفظ الإنسان من الشرور والآفات.

المبحث العاشر: الأسرار والعبر فى الاستفتاح بالقسم فى أول سورة الفجر.

أقسم الله ــ تعالى ــ فى هذه السورة الكريمة بخمسة أشياء، وإقسام الله ــ تعالى ــ بهذه الأمور يدل على شرفها ومكانتها، وأن فيها فوائد دينية ودنيوية.

الأول: الفجر هو الصبح الصادق، وهو النور الساطع الذي يكون في الأفق الشرقي قرب طلوع الشمس، والفجر فجران: فجر صادق، وفجر كاذب. والمقصود بالفجر هنا الفجر الصادق.

وأقسم الله بالفجر ؛ لأن فيه عبرة للمتأمل لما يحصل من انفجار الضوء فيما بين الظلام وانتشار الحيوان من أوكارها لطلب المعاش كما في نشور الموتى من قبورهم.[٢]

وأقسم الله به لأنه الخالق له فلا يقدر على الإتيان بهذا الفجر إلا الله ــ عز وجل ــ كما قال الله (فَالِقُ الْإِصْبَاحِ)[٣] وقال ــ تبارك وتعالى ــ: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ).[٤]

وأقسم الله بالفجر لأنه يترتب عليه أحكام شرعية، مثل: إمساك الصائم فإنه إذا طلع الفجر وجب على الصائم أن يمسك إذا كان صومه فرضاً أو نفلاً إذا أراد أن يتم صومه، ويترتب عليه ــ أيضاً ــ دخول وقت صلاة الفجر، وهما حكمان شرعيان عظيمان.

---

(١) سورة الانفطار، الآيات من ٩ــ١٢

(٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى٦/٤٩٤

(٣) سورة الأنعام، آية:٩٦

(٤) سورة القصص، آية :٧١

وقد خص البعض الفجر بفجر النحر ؛ لأنه يوم الضحايا والقرابين، وبعضهم بفجر المحرّم لأنه أوّل يوم السنة، وبعضهم بفجر ذي الحجة لقوله وليال عشر.(١) والأول هو الأظهر وهو ما عليه جمهور المفسرين.

الثانى: الليالي العشر: والمراد بها عشر ذي الحجة. وهذا هو قول الجمهور.(٢)

وأطلق على الأيام ليالي لأن اللغة العربية واسعة، قد تطلق الليالي ويراد بها الأيام، والأيام يراد بها الليالي.

وقد أقسم الله ــ تعالى ــ بعشر ذي الحجة ؛ لأنها أيام فاضلة فقد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس مرفوعا : مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الأَيَّامِ. يَعْنِى أَيَّامَ الْعَشْرِ. قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلاَ الْجِهَادُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ : وَلاَ الْجِهَادُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ إِلاَّ رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَىْءٍ.(٣)

قال ابن عاشور: كانت الليالي العشر معينة من الله ــ تعالى ــ في شرع إبراهيم ــ عليه السلام ثم غيرت مواقيتها بما أدخله أهل الجاهلية على السَّنة القمرية من النسيء فاضطربت السنين المقدسة التي أمر الله بها إبراهيم ــ عليه السلام ــ. ولا يُعرف متى بدأ ذلك الاضطراب، ولا مقاديرُ ما أدخل عليها من النسيء، ولا ما يضبط أيام النسيء في كل عام لاختلاف اصطلاحهم في ذلك وعدم ضبطه فبذلك يتعذر تعيين الليالي العشر المأمور بها من جانب الله تعالى، ولكننا نوقن بوجودها في خلال السنة إلى أن أوحى الله إلى نبيه محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ في سنة عشر من الهجرة عام حجة الوداع، بأن أشهر الحج في تلك السنة وافقت ما كانت عليه السنةُ في عهد إبراهيم ــ عليه السلام ــ فقال النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ في خطبته في حجة الوداع : إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ.(٤)

---

(١) غرائب القرآن ٦/٤٩٤

(٢) تفسير القرآن العظيم٨/٣٩٠

(٣) أخرجه أبو داود فى السنن، كتاب :الصوم، باب: باب فِى صَوْمِ الْعَشْرِ ٢/٣٠١، وذكره الهيثمى فى المجمع٤/٧ وقال: رواه أحمد والطبرانى فى الكبير كل منهما بإسنادين ورجال أحدهما ثقات.

(٤) صحيح البخارى، كتاب :الأضاحى، باب : الأضحى يوم النحر ص ١١٧٢

وهذا التغيير لا يرفع بركة الأيام الجارية فيها المناسك قبل حجة الـوداع ؛ لأن الله عظمها لأجل ما يقع فيها من مناسك الحج إذ هو عبادة لله خاصة.

فأوقات العبادات تعيين لإيقاع العبادة فلا شك أن للوقت المعـين لإيقاعهـا حكمـة علمها الله تعالى...وتعيين الأوقات للعبادات مما انفرد الله به، فلأوقات العبادات حرمـات بالجعل الرباني، ولكن إذا اختلت أو اختلطت لم يكن اختلالها أو اختلاطها بقاض بسـقوط العبادات المعينة لها. فقسمُ اللَّه ــ تعالى ــ بالليالي العشر في هذه مما نزل بمكة قسم بما في علمه من تعيينها في علمه.[١]

الثالث والرابع : الشفع والوتر.

والشفع ما يكون ثانياً لغيره، والوَتْر:الشيء المفرد.

وعليه المراد بالشفع والوتر كل الخلق، فالخلق إما شفع وإما وتـر، والله ــ عـز وجل ــ يقول:

(وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ)[٢] والعبادات إما شفع وإما وتـر، فيكـون المـراد بالشفع والوتر كل ما كان مخلوقاً من شفع ووتر، وكل ما كان مشروعاً من شفع ووتر.

الخامس: والليل إذا يسر أقسم الله ــ تعالى ــ بسريان الليل، والسري هو السير في الليل والليل يسير يبدأ بالمغرب وينتهي بطلوع الفجر، فهو دائماً في سريان.

فأقسم الله به لما في ساعاته من العبادات كصلاة المغرب، والعشاء، وقيام الليـل، والوتر وغير ذلك، ولأن في الليل يكون التزل الإلهى. وهو أن الله ــ عز وجل ــ ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير ففى الحديث أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال: (يَنْزِلُ رَبُّنَا ــ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ــ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَـى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ يَقُولُ مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَـأَغْفِرَ لَهُ).[٣]

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٣١٤

(٢) سورة الذاريات، آية: ٤٩

(٣) صحيح البخارى، كتاب : التهجد، باب : الدعاء والصلاة من آخر الليل ص ٢٣٧.

والتقييد لما فيه من وضوح الدلالة على كمال القدرة ووفور النعمة، كأن جميع الحيوانات أعيد اليهم الحياة بعد الموت وتسببوا بذلك لطلب الأرزاق الممدة للحياة الدنيوية التى يتوسل بها الى سعادة الدارين.[١]

وقد جمع في هذا القسم جميع الموجودات جملة وتفصيلاً، فشملت الخالق والمخلوق والشفع والوتر إجمالاً وتفصيلاً، في انفجار الفجر وانتشار الخلق وسريان الليل وسكون الكون والعبادات في الليالي العشر.[٢]

وقد اختلف في جواب هذا القسم حيث لم يصرح الله ــ تعالى ــ به، فمن العلماء من يرى أن جواب القسم محذوف دل عليه قوله ــ تعالى ــ بعد ذلك : (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ)[٣] إلى قوله : (فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ)[٤] والتقدير: وحق هذه المخلوقات لتعذبن ــ أيها الكافرون ــ كما عذب الذين من قبلكم، مثل عاد وثمود وفرعون.

قال الآلوسى: والمقسم عليه محذوف، وهو ليعذبن كما ينبيء عنه قوله ــ تعالى شأنه ــ (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ الخ) فإنه استشهاد بعلمه ــ صلى الله تعالى عليه وسلم ــ بما يدل عليه من تعذيب عاد وأضرابهم المشاركين لقومه ــ عليه الصلاة والسلام ــ في الطغيان والفساد على طرقة (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ الآية)[٥] وقوله ــ سبحانه ــ (أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ).[٦]

وبهذا يظهر وجه الارتباط بين القسم وجوابه فى السورة الكريمة. فالله ــ تعالى ــ يقسم بالفجر وبالليالى العشر، والشفع والوتر، والليل إذا يسر ليعذبن هؤلاء الكفار كما عذب الذين من قبلهم كعاد وثمود وفرعون الذين شابهوا أهل مكة فى الكفر والإعراض والطغيان، فكان ذكر هلاك عاد وثمود وفرعون فى السورة دليلا على أن الله ــ تعالى ــ

---

(١) روح البيان لإسماعيل حقى ٣٢٦/١٠ نشر دار إحياء التراث العربى.

(٢) أضواء البيان٥٢٣/٨

(٣) سورة الفجر، آية: ٦

(٤) سورة الفجر، آية:١٣

(٥) سورة البقرة، آية:٢٥٨

(٦) سورة الشعراء، آية:٢٢٥. روح المعانى١٢٣/٣٠

يضرب لأهل مكة المثل والعبرة بمن سبقهم من الأمم الذين كانوا على شاكلتهم فعذبهم الله وانتقم لرسله من هؤلاء المفسدين.

ومن العلماء من ذهب إلى أن جواب القسم مذكور وهو قوله :(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ).[١]

وعليه يكون ارتباط القسم بجوابه يتمثل فى أن الله ــ تعالى ــ يقسم لرسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بما سبق أنه لبالمرصاد لهؤلاء المكذبين الذين كذبوا نبيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ، وأنه سبحانه قد ينزل بهم العذاب كما أنزله بعاد وثمود وفرعون الذين كذبوا رسل الله ــ عليهم السلام ــ.

قال الرازى: واعلم أن في جواب القسم وجهين:

الأول: أن جواب القسم هو قوله : (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) وما بين الموضعين معترض بينهما الثاني : قال صاحب الكشاف: المقسم عليه محذوف وهو لنعذبن الكافرين، يدل عليه قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ) إلى قوله (فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ)[٢] وهذا أولى من الوجه الأول ؛ لأنه لما لم يتعين المقسم عليه ذهب الوهم إلى كل مذهب، فكان أدخل في التخويف، فلما جاء بعده بيان عذاب الكافرين دل على أن المقسم عليه أولاً هو ذلك.[٣]

وقد كان من أعظم ما أقسم الله به قوله ــ تعالى ــ : (هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ)[٤] أي عقل والحجر كل مادته تدور على الإحكام والقوة، فالحجر لقوته، والحجرة لإحكام ما فيها. والعقل سمي حِجراً بكسر الحاء. لأنه يحجر صاحبه عما لا يليق، والمحجور عله لمنعه من تصرفه وإحكام أمره، وحجر المرأة لطفلها، فهذه المقسم بها الخمسة هل فيها قسم كاف لذي عقل والجواب : بلى، وهذا ما يقوي هذا القسم بلا شك.[٥]

والمعنى: مَن كان ذا لُبٍّ عَلِمَ أنَّ ما أقسم الله به من هذه الأشياء فيه عجائب ودلائل على التوحيد والربوبية، فهو حقيق بان يُقسم به، وهذا تفخيم لشأن المقسَم بها،

---

(١) سورة الفجر، آية:١٤

(٢) سورة الفجر، آية:١٣

(٣) مفاتيح الغيب للرازى ٣١/١٥١

(٤) سورة الفجر، آية:٥

(٥) أضواء البيان للشنقيطى ٨/٥٢٣

وكونها أموراً جليلة حقيقة بالإقسام بها لذوي العقول، وهذا كقوله ــ تعالى ــ (إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)(١).

فإن قيل : ما فائدة قوله ــ تعالى ــ : (هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ). بعد أن أقسم ــ سبحانه ــ بالأشياء المذكورة ؟ جوابه هو لزيادة التأكيد والتحقيق للمقسم عليه، كمن ذكر حجة باهرة ثم قال : أفيما ذكرته حجة؟

قال النيسابورى: والمراد بالاستفهام تقرير أن هذه المذكورات لشرفها وعظم شأنها يحق أن يؤكد بمثلها المقسم عليه كمن ذكر حجة باهرة ثم قال : هل فيما ذكرته حجة يريد أنه لا حجة فوق هذا.(٢)

وارتباط ما أقسم الله ــ تعالى به فى أول السورة بما في آخر السورة، فهو أن المقسم به هنا خمس مسميات (والفجر. وَلَيالٍ عَشْرٍ. والشفع والوتر. والليل إِذَا يَسْرِ) والذي في آخر السورة أيضاً خمس مسميات :(دُكَّتِ الأرض دَكّاً دَكّاً. وَجَآءَ رَبُّكَ والملك صَفّاً صَفّاً. وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى)(٣) صور اشتملت على اليوم الآخر كله من أول النفخ في الصور، ودك الأرض إلى نهاية الحساب، وتذكر كل إنسان ماله وما عليه، تقابل ما اشتمل عليه القسم المتقدم من أمور الدنيا.(٤)

المبحث الحادى عشر: الأسرار والعبر فى الاستفتاح بالقسم فى أول سورة البلد

أقسم الله ــ تعالى ــ فى أول سورة البلد بالبلد الحرام فى قوله ــ تعالى ــ (لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ).(٥)

وقد وردت هذه اللفظة فى القرآن ويراد بها مكة فى بعض سوره كسورة البقرة،(٦)

---

(١) سورة الواقعة، آية:٧٦، البحر المديد ٨/٤٥٥

(٢) غرائب القرآن للنيسابورى٦/٤٩٥

(٣) سورة الفجر، الآيات من ٢١)٢٣

(٤) أضواء البيان٨/٥٢٤

(٥) سورة البلد، آية:١

(٦) جاء هذا فى قول الله ــ تعالى ــ (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا....) الآية:١٢٦

وإبراهيم،[١] والنمل[٢] والتين.[٣]

وقد اختلف العلماء فى لفظة " لا " فى مثل هذا التركيب، فيرى بعض المحققين أنها مزيدة للتأكيد، والمعنى : أقسم بهذا البلد. أى : مكة المكرمة وقد سبق الحديث عن مثل هذا التركيب عند الحديث عن سورة القيامة.[٤]

ومما يرجح أن المراد من هذا الأسلوب القسم، أن الله ــ تعالى ــ قد أقسم بهذا البلد وهو مكة في موضع آخر، وهو في قوله ــ تعالى ــ :(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ. وَطُورِ سِينِينَ. وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ).[٥]

لأن هذا البلد مراد به مكة إجماعاً لقوله ــ تعالى ــ بعده : (وَأَنْتَ) أي الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ (حِلٌّ)، أي حال أو حلال (بهذا البلد) أي مكة.

فقد أقسم الله ــ سبحانه ــ بالبلد الحرام حال حلول الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيه وإقامته به.

والإشارة بلفظ " هذا " مع بيانه بالبلد، إشارة إلى حاضر فى أذهان السامعين ؛ لأن مكة بعضهم كان يعيش فيها. وبعضهم كان يعرفها معرفة لا خفاء معها، وشبيه بذلك قوله ــ تعالى ــ: (إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ البلدة الذي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيءٍ)[٦].

وفائدة الإتيان باسم الإشارة هنا : تمييز المقسم به أكمل تمييز لقصد التنويه به.[٧]

وقوله ــ تعالى ــ(وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ) يحتمل معان عدة :

منها : أى وأنت حالّ ساكن به مقيم به، وعليه يكون المقصود تعظيم المقسم به، وهو أنه بحلول الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ بمكة فقد جمعت شرفين، شرفها هى

---

(١) فى قول الله ــ تعالى ــ (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ.....) الآية: ٣٥

(٢) فى قول الله ــ تعالى ــ (إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا...) الآية:٩١

(٣) فى قول الله ــ تعالى ــ (وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ) الآية:٣

(٤) ينظر البحث ص ٣٨

(٥) سورة التين، الآيات ١ــ٣

(٦) سورة النمل، آية:٩١

(٧) التفسير الوسيط أ د/ طنطاوى ٥٦٢/١٥

الذى شرفها الله به، وشرف الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ، فازدادت تعظيما على تعظيم وشرفا على شرف واستحقت بذلك القسم.

جاء فى البحر المحيط : إنه ــ تعالى ــ أقسم بها لما جمعت من الشرفين شرفها بإضافتها إلى الله ــ تعالى ــ، وشرفها بحضور رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ، وإقامته فيها فصارت أهلا لأن يقسم بها.(١)

وقال الإمام البيضاوى : أقسم ــ سبحانه ــ بالبلد الحرام وقيده بحلول الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيه إظهارا لمزيد فضله وإشعارا بأن شرف المكان بشرف أهله.(٢)

وقال ابن القيم فى التبيان : إنه إذا كان الحل من الحلول، فهو متضمن لهذا التعظيم مع تضمنه أمرا آخر، وهو الإقسام ببلده المشتمل على رسوله وعبده، فهو خير البقاع، وقد اشتمل على خير العباد. فجعل بيته هدى للناس ونبيه إماما وهاديا لهم، وذلك من أعظم نعمه وإحسانه إلى خلقه.(٣)

ومن معانى (الحل) أنها تأتى بمعنى اسم المفعول، أى : مُستَحَل، وعلى هذا يكون المعنى: وأنت مستحل قتلك لا تراعى حرمتك فى هذا البلد الحرام الذى يأمن فيه الناس على دمائهم وأموالهم والذى يأمن فيه الطير والوحش. فهم يحرمون أن يقتلوا به صيداً ، ويستحلون قتلك فيه، وإخراجك منه.

قال الرازى: أي أن الكفار يحترمون هذا البلد ولا ينتهكون فيه المحرمات، ثم إنهم مع ذلك ومع إكرام الله ــ تعالى ــ إياك بالنبوة يستحلون إيذاءك ولو تمكنوا منك لقتلوك، فأنت حل لهم في اعتقادهم لا يرون لك من الحرمة ما يرونه لغيرك. عن شرحبيل : يحرمون أن يقتلوا بها صيداً أو يعضدوا بها شجرة ويستحلون إخراجك وقتلك، وفيه تثبيت لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وبعث على احتمال ما كان يكابد من أهل مكة، وتعجيب له من حالهم في عدوانهم له.(٤)

---

(١) البحر المحيط ٨/٤٧٠

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوى ٥/٤٩٢

(٣) التبيان لابن القيم ٥٨ــ٥٩

(٤) مفاتيح الغيب ٣١/١٦٣

وقال الآلوسى : وفيه تحقيق مضمونه بذكر بعض المكابدة على نهج براعة الاستهلال وإدماج لسوء صنيع المشركين ليصرح بذمهم على أن الحل بمعنى المستحل بزنة المفعول الذي لا يحترم، فكأنه قيل : ومن المكابدة أن مثلك على عظم حرمته يستحل بهذا البلد الحرام ولا يحترم كما يستحل الصيد في غير الحرم.....وفي تأكيد كون الإنسان في كبد بالقسم تثبيت لرسول الله ــ صلى الله تعالى عليه وسلم ــ وبعث على أن يطأ من نفسه الكريمة على احتماله فإن ذلك قدر محتوم.(١)

ومن معانى (الحل) أنها تأتى بمعنى الحلال ضد الحرام، والمعنى : أى وأنت حلال بهذا البلد يحل لك فيه قتل من شئت. وقد كان هذا يوم فتح مكة. وعليه فتكون الآية بهذا إخباراً عن المستقبل ووعداً بالفتح، وأنها تحل له بعد أن كانت حراماً، فيقاتل أهلها وينتصر عليهم أو أنه تسلية له، وأن الله عالم بما يفعلون به، وسينصره عليهم.

قال الرازى : (وَأَنتَ حِلٌّ) أي لست بآثم، وحلال لك أن تقتل بمكة من شئت، وذلك أن الله تعالى ــ فتح عليه مكة وأحلها له، وما فتحت على أحد قبله، فأحل ما شاء وحرم ما شاء وفعل ما شاء، فقتل عبد الله بن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة، ومقيس بن صبابة وغيرهما، وحرم دار أبي سفيان، ثم قال : (إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَهِيَ حَرَامٌ بِحَرَامِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَلَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي وَلَمْ تَحْلِلْ لِي قَطُّ إِلَّا سَاعَةً مِنْ الدَّهْرِ لَا يُنَفَّرُ صَيْدُهَا، وَلَا يُعْضَدُ شَوْكُهَا،(٢) وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهَا،(٣) وَلَا تَحِلُّ لُقَطَتُهَا إِلَّا لِمُنْشِدٍ).(٤)

وعلى هذين القولين تكون (لا) نافية، أى : لا أقسم بهذا البلد فى حين أن أهله يستحلون حرمتك، ولا يراعون لك قدرا، أو لا أقسم بهذا البلد وقد جاء أهله بأعمال تستحل حرمتهم والوقيعة بهم فى هذا البلد الآمين. فعلى كلا القولين تكون (لا) نافية.

---

(١) روح المعانى ١٣٣/٣٠

(٢) لا يعضد : بصيغة المجهول أي لا يقطع والعضد القطع. عون المعبود شرح سنن أبي داود لمحمد شمس الحق العظيم آبادي أبو الطيب ١٦/٦ نشر دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط ثانية ــ ١٤١٥هـ.

(٣) يختلى خلاها : الخلا هو الرطب من النبات واختلاؤه قطعه واحتشاشه. فتح البارى شرح صحيح البخارى للحافظ ابن حجر ٤٨/٤ نشر دار المعرفة ــ بيروت.

(٤) صحيح البخارى، كتاب : جزاء الصيد، باب : لَا يُنَفَّرُ صَيْدُ الْحَرَمِ ص ٣٧٨. مفاتيح الغيب ٣١ /١٦٣

قال ابن عطية : وهذا يتركب على قول من قال (لا) نافية، أى : أن هـذا البلـد لا يقسم الله به وقد جاء أهله بأعمال توجب الإحلال، إحلال حرمته.[١]

أو المعنى : "وأنت حل بهذا البلد مما يقترفه أهله من المآثم مُتَحَرِّج برئ منها"[٢]

وإن كان معنى حل بهذا البلد أى مقيم بها ساكن فيها هو الأنسب فى تفسير الآيـة والراجح والله أعلم ؛ وذلك لقرائن من نفس السورة ومن غيرها من القرآن الكريم، كمـا قال صاحب أضواء البيان :

منها : أن حلوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بهذا البلد له شأن عظيم فعلاً، وأهمـه الله رافع عنهم العذاب لوجوده فيهم، كما في قوله تعالى :(وَمَا كَـانَ اللهُ لِيُعَـذِّبَهُمْ وَأَنـتَ فِيهِمْ)[٣]، فكأنه تعالى يقول : وهذا البلد الأمين من العذاب، وهؤلاء الآمنون من العـذاب بفضل وجودك فيهم.

منها : أنه ــ صلى الله عليه وسلم بحلوله ــ فيها بين أظهرهم، يلاقي من المشاق ويصبر عليها.

وفيه أروع المثل للصبر على المشاق في الدعوة، فقـد آذوه كـل الإيـذاء، حتـى وضعوا سلا الجزور عليه وهو يصلي عند الكعبة. وهو يصبر عليهم، وآذوه في عودتـه من الطائف وجاء ملك الجبال نصرة له، فأبى وصبر ودعا لهم، ومنعوه الدخول إلى بلـده مسقط رأسه فصبر، ولم يدع عليهم، ورضى الدخول في جوار رجل مشـرك وهـذا هـو المناسب لقوله بعده (لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي كَبَدٍ) وهذا من أعظمه. فإذا كان كـل إنسـان يكابد في حياته، أياً كان هو، ولأي غرض كان، فمكابدتك تلك جديرة بالتقدير والإعظـام، حتى يقسم بها. [٤]

وبهذا يظهر وجه ارتباط القسم بالمقسم به فى أوضح صورة وأبينها وأبلغها.

قوله ــ تعالى ــ (وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ).

---

(١) المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز لعبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسى ٥/٤٥٤ نشـر دار الكتب العلمية ــ لبنان ــ ١٤١٣هـ، البحر المحيط٨/٤٦٩

(٢) روح المعانى٣٠/١٣٤

(٣) سورة الأنفال، آية:٣٣

(٤) أضواء البيان للشنقيطى٨/٥٣٠ــ٥٣١

اختلف المفسرون فى المراد بالوالد وما ولد فى الآية هنا:

فقد قال بعض العلماء إن الوالد هو آدم، وما ولد من ذريته، وأن هذا هو المناسب مع هذا البلد لأنها أم القرى، وهو أبو البشر، فكأنه أقسم بأصول الموجودات وفروعها.(١)

وقال صاحب التحرير والتنوير : والذي يناسب القسم بهذا البلد أن يكون المراد بـ (والد) إبراهيمَ ـ عليه السلام ـ فإنه الذي اتخذ ذلك البلد لإقامة ولده إسماعيل وزوجه هاجَر قال ـ تعالى ـ : (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ)(٢) ثم قال : (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ)(٣). وإبراهيم والد سُكان ذلك البلد الأصليين قال ـ تعالى ـ: (مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ)(٤)، ولأنه والد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ

(وما وَلَد) ما ولده إبراهيم من الأبناء والذرية. وذلك مخصوص بالذين اقتفوا هديه فيشمل محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

وفي هذا تعريض بالتنبيه للمشركين من ذرية إبراهيم بأنهم حادُوا عن طريقة أبيهم من التوحيد والصلاح والدعوة إلى الحق وعِمارَةِ المسجد الحرام قال ـ تعالى ـ : (إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا).(٥)

وقيل : هو كل والد وما ولد من العقلاء وغيرهم، فلا يراد به معين، وقد روى هذا عن ابن عباس فقال ما معناه : (إن الوالد والولد هنا على العموم فهي أسماء جنس يدخل فيها جميع الحيوان).(٦) وهذا هو الراجح ؛ لأن العموم أنسب للقسم، من حيث دلالته على قدرة الخالق ـ سبحانه وتعالى..

ووجه ارتباطها بالمقسم عليه ظاهر، ذلك أن الولادة مشقة وتعب ومكابدة، فظهر ارتباطها بقوله (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ)(٧)، وكما هى مرتبطة بالمُقْسَم عليه فى أول

---

(١) أضواء البيان ٨/٥٣١

(٢) سورة إبراهيم، آية:٣٥

(٣) سورة إبراهيم، آية:٣٧

(٤) سورة الحج، آية: ٧٨

(٥) سورة آل عمران، آية:٦٨ .التحرير والتنوير ٣٠/٣٤٩

(٦) البحر المحيط ٨/٤٧٠

(٧) سورة البلد، آية:٤

السورة هى مرتبطة ــ أيضا ــ بآخر السورة، وهو قوله (وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ)[١] ذلك أن الوالد من الأناسى والبهائم، يحتاج فى تربية ولده وحفظه وإطعامه والقيام عليه إلى صبر ورحمة فظهر ارتباط الآية بأول السورة وآخرها.[٢]

وجه ارتباط القسم بالمقسم عليه فى قوله (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ):

الكَبَدُ: المَشقةُ. قال الزمخشري: "وأصلُه مِنْ كَبِدَ الرجلُ كَبَداً فهو أكبدُ، إذا وَجِعَتْ كَبِدْه وانتفخَتْ، فاتُّسِعَ فيه حتى استُعْمِلَ في كلِّ نَصَبٍ ومشقةٍ، ومنه اشْتُقَّت المكابَدةُ، كما قيل: كَبَتَه، بمعنى أهلكه، وأصلُه كَبَدَه، أي: أصاب كَبِدَه.[٣]

فأقسم الله ــ تعالى ــ بالبلد ــ وهى مكة فى قول جميع المفسرين ــ فى الوقت الذى كان النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ حالا بها ومقيما فيها، وقد كان الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ يلقى عنتا ومشقة من أهلها وهو يبلغ دعوة ربه، فبين الله ــ تعالى ــ أنه خلق الإنسان فى كبد فى هذه الحياة ؛ ليسليه ويصبره عما لاقاه ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى طريق دعوته من قومه.

قال الشنقيطى: كان المقسم عليه مكابدة الإنسان من أول ولادته إلى نشأته، إلى كده في حياته، إلى نهايته ومماته. من ذلك مكابدته ــ صلى الله عليه وسلم ــ منذ ولادته إلى حيث مات أبوه قبله، ولحقت به أمه، وهو في طفولته، وبعد الوحي كابد مع قومه ولقى منهم عنتاً شديداً، حتى تآمروا على قتله، فكأنه يقول له : اصبر على ذلك، فإن المكابدة لا بد منها، هي ملازمة للإنسان كملازمتك لهذا البلد منذ ولادتك.[٤]

وقوله ــ تعالى ــ "خلقنا" بدلا من جعلنا، إشارة إلى أن الإنسان مخلوق بفطرته لهذه المكابدة من معاناة المسئولية وأمانة التكليف، والابتلاء بالشر والخير.[٥]

فالله ــ تعالى ــ أقسم بالبلد الحرام وقت أن كان الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ حالا به، وأقسم بالوالد وما ولد على أن الإنسان خلق مكابدا للشدائد والمتاعب

---

(١) سورة البلد، آية: ١٧

(٢) لمسات بيانية ص ٢٥٢

(٣) الكشاف للزمخشرى ٧٥٨/٤

(٤) أضواء البيان ٤٤٣/٨

(٥) التفسير البيانى ١٧٩/١

والمشاق، والسورة كلها تخدم هذا الغرض وتبينه فى أوضح صورة على نحو يظهر ارتباط القسم بجوابه.

المبحث الثانى عشر: الأسرار والعبر فى الاستفتاح بالقسم فى أول سورة الشمس

بدأ الله ــ سبحانه ــ سورة الشمس بالقسم بسبعة أشياء من مخلوقاته ــ عز وجل ــ، وذكر من أحوالها ما هو دليل على بديع صنعه ــ تعالى ــ الذى لا يشاركه فيه غيره. وقد أقسم الله ــ تعالى ــ بهذه الأمور على فلاح الإنسان ونجاحه إذا اتقى الله، وعلى شقاوته وخسرانه إذا طغى وتمرد.

وفي تلك الآيات العشر يقسم الله ــ تعالى ــ بسبع آيات كونية، هي الشمس، والقمر، والليل والنهار، والسماء، والأرض، والنفس البشرية، وذلك على شيء واحد، وهو فلاح من زكى تلك النفس وخيبة من دساها، ومع كل آية جاء القسم بها توجيهاً إلى أثرها العظيم المشاهد الملموس، الدال على القدرة الباهرة.(١) وترتيب هذه الأقسام جاء على النحو التالى:

أولاً: (والشمس وَضُحَاهَا) فظاهرة الشمس آية دالة على قدرة الخالق ــ جل شأنه ــ ، وذلك لما فيها من الأسرار العجيبة التى لا يحيط بها إلا خالقها ــ سبحانه ــ ، وإن كان العلم توصل إلى بعض الحقائق التى أعجزت العالم بأسره، فالشمس آية من آيات الله فيها الكثير من المنافع والخيرات للناس والحيوان والنبات، ولولاها لما صلحت الحياة ولا كانت حياة لنبات أو حيوان. فهى مصدر الطاقة، وهى على مر الزمان لم ينتقص منها شئ ولا استعصت عن الإشراق أو الغروب فى يوم. فسبحان خالقها ومبدعها.

يقول العلماء : الشمس مصدر لجميع أنواع الطاقة فى كوكب الأرض، ولولا الشمس لما وجدت هناك حياة للنبات أو الحيوان أو الإنسان، فالشمس شجرة المادة والطاقة فى هذه الدنيا، وهى السراج المتوهج فى السماء الذى يمد البشر بالضوء المنبعث ذاتيا.(٢)

---

(١) أضواء البيان ٥٣٦/٨

(٢) الكون والإعجاز العلمى د / منصور حسب النبى ص ١٢٧ ط دار الفكر العربى ــ ط ثالثة ــ ١٩٩٦م.

وقد قيل إن الشمس لو اقتربت درجة أو ارتفعت درجة لما استطاع أحد أن ينتفع منها بشيء لأنها تحرق باقترابها، ويتجمد العالم من بعدها، ذلك تقدير العزيز العليم.[١]

ولأهمية الشمس والقمر ظن الناس فى بعض العصور أنهما إلهين وأفردوهما بالعبادة وخصوهما بالطاعة، ظنا منهم أنهما مصدر النفع والخير لهم، ولهذا جاء النهى عن عبادتهما، وأمر الله ــ تعالى ــ بعبادة خالقهما ومبدعهما ومجريهما فقال ــ سبحانه ــ (لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ).[٢]

(وَضُحَاهَا) الضحى : وقتُ ارتفاع الشمس عن أفق مشرقها، وظهور شعاعها، وهو الوقت الذي ترتفع فيه الشمس متجاوزة مشرقها بمقدار ما يخيل للناظر أنه طول رُمح،[٣] فهو انتشار ضوئها ضحوة النهار، وهذا وحده آية، لأنه نتيجة لحركتها، وحركتها آية من آيات الله.[٤]

وقد أقسم ــ تعالى ــ بالضحى وحده في قوله ــ تعالى ــ (وَالضُّحَى. وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى).[٥] وأضاف الضحى إلى الشمس، لأنه إنما يكون بارتفاع الشمس.[٦]

فالقسم هنا بالشمس وضحاها تذكير بحال العالم الذين كانوا بمثابة الموتى أثناء نومهم فى حال غياب الشمس وإقبال الليل بظلامه، ثم دبت فيهم الحياة حال طلوع الشمس وضحوها وفى هذا تذكير للإنسان بغيابه عند موته، وبحياته مرة أخرى عند بعثه. فما أحوجه إلى تزكية هذه النفس حتى تكون النجاة، وبعده عن دسها الذى يكون به الخيبة والخسار.

قال الرازى: إنَّما أقسم بالشمس، وضحاها، لكثرة ما يتعلق به من المصالح، فإنَّ أهل العالم كانوا كالأموات في الليل، فلما ظهر الصبحُ في المشرق، صار ذلك الضوء،

---

(١) أضواء البيان ٥٣٦/٨

(٢) سورة فصلت، آية : ٣٧

(٣) التحرير والتنوير ٣٦٦/٣٠

(٤) أضواء البيان٥٣٦/٨

(٥) سورة الضحى، الآيتان :١ــ٢

(٦) الجامع لأحكام القرآن ٧٢/٢٠

كالروح الذي تنفخ فيه الحياة، فصارت الأموات أحياء، ولا تزال تلك الحياة في القوة، والزيادة إلى غاية كمالها وقت الضحى، وذلك شبيه استقرار أهل الجنة.(١)

فالشمس والقمر آيتان من آيات الله العظيمة قال ــ تعالى ــ (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)(٢)، ولذا أقسم الله ــ تعالى ــ بهما فى كتابه العزيز، فبعد أن أقسم الله ــ تعالى ــ بالشمس وضحاها أقسم بالقمر إذا تلت الشمس.

ثانيا: قوله (وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا) أى : تبعها، تقول : فلان تلا فلانا يتلوه، إذا تبعه، قال العلماء : فأما أن القمر تابع للشمس فيحتمل معنيين :

أحدهما : أنه تال لها فى ارتباط مصالح الناس، وتعلق منافع هذا العالم بحركته، وقد دل علم الهيئة على أن بين الشمس والقمر من المناسبة ما ليس بين غيرهما من الكواكب.

وثانيهما : أن القمر يأخذ نوره ويستمده من نور الشمس. وهذا قول الفراء قديما، وقد قامت الأدلة عند علماء الهيئة والنجوم، على أن القمر يستمد ضوءه من الشمس.(٣)

قال ابن عاشور: وفي الآية إشارة إلى أن نور القمر مستفاد من نور الشمس، أي من توجه أشعة الشمس إلى ما يقابل الأرض من القمر، وليس نيّراً بذاته، وهذا إعجاز علمي من إعجاز القرآن.(٤)

ولا يخفى ما في القمر من فوائد للخليقة، من تخفيف ظلمة الليل، وكذلك بعض الخصائص على الزرع، وأهم خصائصه بين الشهور بتقسيم السنة ومعرفة العبادات من صوم، وحج وزكاة، وعدد السنين، وكفارات بصوم، وحلول الديون، وشروط المعاملات، وفي كل ما له صلة بالحساب في عبادة أو معاملة.(٥)

ثالثا: قوله:(وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا) أى : جلى النهار الشمس، أى : أظهرها.

والضمير فى جَلَّاهَا راجع للشمس كما في الذي قبله، وقيل : إن الضمير المنصوب فى (جلاها) يعود إلى الأرض، وهو اختيار ابن كثير ــ رحمه الله ــ أي كشفها وأوضح كل

---

(١) مفاتيح الغيب ١٧٢/٣١

(٢) سورة فصلت، آية:٣٧

(٣) التفسير الوسيط أ د طنطاوى ٥٨٠/١٥ نقلا عن تفسير جزء عم للشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ص ٢١١

(٤) التحرير والتنوير ٣٦٧/٣٠

(٥) أضواء البيان٥٣٧/٨

ما فيها ليتيسر طلب المعاش والسعي.[١]

رابعا: قوله: (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا) أى : يغشى الليلُ الشمسَ فيغطى ضوءها، فالضمير فى يغشاها يعود إلى الشمس. وعليه قيل : إن الأقسام في هذه الأربعة راجع كله إلى الشمس في حالات مختلفة في ضحاها ثم تجليها، ثم تلو القمر لها، ثم بغشيان الليل إياها.[٢]

وقيل : إن الضمير يعود إلى الأرض.[٣]

قال الشيخ طنطاوى ــ رحمه الله ــ : والحق أن فى قوله ــ تعالى ــ (جَلَّاهَا) و(يَغْشَاهَا) إشارة واضحة إلى أن الضمير فيهما يعود إلى الشمس، إذ النهار يجلى الشمس ويكشفها أتم انكشاف، والليل يزيل ضوءها ويستره، فنسب ــ سبحانه ــ إلى النهار ما يلائمه بالنسبة للشمس، وكذلك الحال بالنسبة لليل.[٤] ومما يدل على هذا ويقويه أن الأرض لم يجر لها ذكر فى الموضعين.

خامسا: قوله (وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا) قال المفسرون :(ما) اسم موصول بمعنى " من " أي والسماء ومن بناها أو وبانيها، وكأن الله ــ تعالى ــ يقول : وأقسم لكم بالله القادر الذى بنى السماء، فدل بناؤها وإحكامها على وجوده، وكمال قدرته.[٥]

ويحتمل أن تكون (ما) هاهنا مصدرية، بمعنى: والسماء وبنائها.[٦]

سادسا: (وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا) الطحو: هو مَدُّ الأرض وبسطُها، وتوسيعها ليستقر عليها الأنام والحيوان، ويمكن فيها البناء والغِراس والزرع، وهو متضمن لِنُضُوب الماء عنها.[٧]

سابعا: قوله ــ تعالى ــ (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا) أي وأقسم بالنفس البشرية وبالذي أنشأها وأبدعها وجعلها مستعدة لكمالها، وذلك بتعديل أعضائها، وقواها الظاهرة والباطنة، ومن تمام تسويتها أن وهبها العقل، الذي تميز به بين الخير والشر، والتقوى والفجور.[٨]

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٨/٤١٠، أضواء البيان٨/٥٣٧

(٢) أضواء البيان ٨/٥٣٨

(٣) البحر المحيط ٨/٤٧٣

(٤) التفسير الوسيط ١٥/٥٨١

(٥) صفوة التفاسير٣/٥٦٥ــ٥٦٦

(٦) تفسير القرآن العظيم لابن كثير٨/٤١١

(٧) التبيان ص ٢٨

(٨) صفوة التفاسير٣/٥٦٦

(فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) يعني ألهمها بالطاعة والمعصية ويقال عرفها وبين لها ما تأتي وما تذر.[١]

قال المفسرون : أقسم ــ سبحانه ــ بسبعة أشياء : الشمس، والقمر، والليل، والنهار والسماء والأرض، والنفس البشرية إظهارا لعظمة قدرته، وانفراده بالإلوهية، وإشارة إلي كثرة مصالح تلك الأشياء وعظم نفعها، وأنها لابد لها من صانع ومدبر لحركاتها وسكناتها.[٢]

وقال الإمام الفخر : لما كانت الشمس أعظم المحسوسات، ذكرها ــ تعالى ــ مع أوصافها الأربعة، الدالة على عظمها، ثم ذكر ــ سبحانه ــ ذاته المقدسة، ووصفها ــ جل وعلا ــ بصفات ثلاث، ليحظى العقل بإدراك جلال الله ــ تعالى ــ وعظمته، كما يليق به ــ جل جلاله ــ فكان ذلك طريقا إلى جذب العقل، من حضيض عالم المحسوسات، إلى بيداء أوج كبريائه جل شأنه.[٣]

وابتدئ بالشمس لمناسبة المقام، إيماء للتنويه بالإسلام لأن هديه كنور الشمس لا يترك للضلال مسلكاً، وفيه إشارة إلى الوعد بانتشاره في العالم كانتشار نور الشمس في الأفق واتبع بالقمر لأنه ينير في الظلام كما أنار الإسلام في ابتداء ظهوره في ظلمة الشرك، ثم ذكر النهار والليل معه لأنهما مثل لوضوح الإسلام بعد ضلالة الشرك. ومناسبة استحضار السماء عقب ذكر الشمس والقمر، واستحضار الأرض عقب ذكر النهار والليل، واضحة، ثم ذكرت النفس الإنسانية لأنها مظهر الهدى والضلال وهو المقصود.[٤]

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) أي : طهرها من الذنوب ونماها وأصلحها، وصفاها تصفية عظيمة مما يسره الله ــ تعالى ــ له من العلوم النافعة والأعمال الصالحة. وأصل الزكاة النموّ والزيادة، ومنه زكى الزرع إذا كثر ريعه، ومنه تزكية القاضي الشاهد ؛ لأنه يرفعه بالتعديل.[٥]

---

(١) بحر العلوم لأبى الليث نصر بن محمد السمرقندى٣/٥٦٢ تحقيق د/محمود مطرجى ــ نشر دار الفكر ــ بيروت.

(٢) صفوة التفاسير ٣/٥٦٦

(٣) مفاتيح الغيب ٣١/١٧٣

(٤) التحرير والتنوير ٣٠/٣٦٧

(٥) السراج المنير ٤/٣٩٧

(وَقَدْ خَابَ) أي : خسر (مَنْ دَسَّاهَا) أي : دسسها أي أخملها حتى ركب المعاصي وترك طاعة اللّه ــ عزَّ وجلَّ ــ وأصل دساها دسسها من التدسيس، وهو إخفاء الشيء فأبدل من السين الثانية ياء، والمعنى : أخملها وأخفى محلها بالكفر والمعصية.[١]

واختلف في الضمير المرفوع في (زَكَّاهَا و (دَسَّاهَا)، فمن العلماء من ذهب إلى أن الضمير فيهما عائد على (مَنْ) [٢]. والمعنى : قد أفلح من زكى نفسه، وقد خاب من دساها. فالضمير حينئذ يعود على العبد.

وقد استدل أصحاب هذا القول بقوله ــ تعالى ــ : (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى. وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى)[٣] وبقوله :(وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ) [٤]، وقوله : (فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى) [٥]، وقوله : (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى) [٦].

وذهبت طائفة أخرى من العلماء إلى أن الضمير يرجع إلى الله ــ سبحانه وتعالى ــ.[٧]

وقد استدل أصحاب هذا القول بما يلى :

أولا : بقوله ــ تعالى ــ : (بَلِ اللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً)[٨]، وبقوله : (وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً)[٩].

ثانيا: قالوا: أقسم الله ــ تعالى ــ بهذه الأشياء التى ذكرها ؛ لأنها تدل على وحدانيته، وعلى فلاح من طَهَّره وخسارة من خذله، حتى لا يظن أحد أنه هو الذى يتولى تطهير نفسه وإهلاكها بالمعصية من غير قدر سابق، وقضاء متقدم. قالوا : وهذا أبلغ فى التوحيد الذى سيقت له هذه السورة.

---

(١) المصدر السابق

(٢) البحر المحيط ٣٦١/٨

(٣) سورة الأعلى، الآيتان: ١٤ــ١٥

(٤) سورة فاطر، آية :١٨

(٥) سورة النازعات، آية :١٨ــ١٩

(٦) سورة عبس، آية : ٣

(٧) البحر المحيط ٣٦١/٨

(٨) سورة النساء، آية :٤٩

(٩) سورة النور، آية : ٢١

ثالثا: يشهد له حديث النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ: (اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِى تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلاَهَا)(١).

قالوا: وفى هذا ما يبين أن الأمر كله له ــ سبحانه ــ، فإنه هو خالق "النفس"، وهو ملهمها الفجور والتقوى، وهو مُزَكِّيها ومُدَسِّيها، فليس للعبد فى الأمر شئ، ولا هو مالك من أمر نفسه شيئا.

ومما يرجح القول الأول، وهو أن ضمير(زكاها) و(دساها) عائد على "من" أى على العبد الذى زكى نفسه أو دساها ما يلى :

أولا: أن فيه إشارة إلى تعليق الفلاح على فعل العبد واختياره كما هى طريقة القرآن.

ثانيا: أن فيه زيادة فائدة ؛ وهى إثبات فعل العبد وكسبه، وما يثاب ويعاقب عليه، وفى قوله (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) إثبات القضاء والقدر السابق.

فتضمنت الآيتان هذين الأصلين العظيمين، وهما كثيرا ما يقترنان فى القرآن كقوله (كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ. فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ. وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)(٢).

ثالثا: يمكن الجمع بين تلك النصوص المتقدمة بأن نقول أن ما يتزكى به العبد من إيمان وعمل في طاعة وترك لمعصية، فإنه بفضل من اللَّه وتوفيقه وإعانته، كما في قوله ــ تعالى ــ المصرح بذلك (وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً) وإذا دساها فإنما يُدَسِّيها بعد تَدْسِية الله لها بخذلانه، والتخلية بينه وبين نفسه.(٣)

وقد اختلف العلماء فى جواب القسم، فأكثر المفسرين على أن جواب القسم مذكور فى السورة وهو قوله ــ تعالى ــ : (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا)(٤). وقالوا حذفت اللام من جواب القسم لطول ما بين المقسم به والمقسم عليه.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب :الذكر والدعاء والتوبة، باب : التَّعَوُّذِ مِنْ شَرِّ مَا عَمِلَ وَمِنْ شَرِّ مَا لَمْ يَعْمَلْ٨/٨١

(٢) سورة المدثر، الآيات من ٥٤ــ٥٦

(٣) التبيان لابن القيم ٢٩ وما بعدها، أضواء البيان ٥٤٢/٨

(٤) الآيتان : ٩ــ١٠

قال الزجاج : جواب القسم (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا) ولما طال الكلام حَسُن حذف اللام من الجواب.(١)

بينما يرى كثير من المحققين من العلماء أن جواب القسم محذوف، للعلم به، فكأنه سبحانه ــ قد قال : وحق الشمس وضحاها، وحق القمر إذا تلاها.. ليقعن البعث والحساب والجزاء أو لتحاسبن على أعمالكم، ودليل هذا الجواب قوله ــ تعالى ــ بعد ذلك : (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا)(٢) لأن هذه الآية الكريمة وما بعدها، تدل على أن الله ــ تعالى ــ قد اقتضت سنته، أن يحاسب من فسق عن أمره، وأصر على تكذيب رسله.

وعلى هذا سار صاحب الكشاف، فقد قال : فإن قلت : فأين جواب القسم؟ قلت : هو محذوف، تقديره : ليُدَمْدِمَنَّ الله عليهم، أى : على مكة لتكذيبهم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ كما دمدم على قبيلة ثمود لأنهم كذبوا صالحا ــ عليه السلام ــ وأما قوله : (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا) فكلام تابع لقوله : (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) على سبيل الاستطراد، وليس من جواب القسم فى شئ.(٣)

ومن خلال الحديث عن جواب القسم تتضح لك المناسبة بين القسم وجوابه ؛ إذ إن مقصود هذه السورة الترغيب في الطاعات والتحذير من المعاصي. فالله ــ تعالى ــ يقسم فى السورة بما أقسم به على فلاح من زكى نفسه وخيبة وخسارة من أهلكها بالمعصية، وفى هذا تذكير للمشركين من أهل مكة وضرب المثل لهم بمن تقدمهم من قوم صالح الذين طغوا وعتوا فأوقع الله ــ تعالى ــ بهم العذاب.

المبحث الثالث عشر: الأسرار والعبر فى الاستفتاح بالقسم فى أول سورة الليل.

أقسم الله ــ سبحانه ــ فى افتتاح هذه السورة بثلاثة أشياء، على أن أعمال الناس مختلفة.

---

(١) معانى القرآن وإعرابه للزجاج ٣٣١/٥ تحقيق د/عبد الجليل عبده شلبى ــ ط عالم الكتب ــ ط أولى ــ ١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٨م

(٢) الآية: ١١

(٣) تفسير الكشاف ٧٦٤/٤، الوسيط ٥٨٤/١٥

أقسم ــ أولا ــ بالليل فقال : (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى) أي يغشى النّهار بظلمته فيذهب الله بضوئه.[١]

وأقسم ــ ثانيا ــ بالنهار فقال:(وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى) أي إذا انكشف ووضح وظهر، وبان بضوئه عن ظلمة الليل.[٢]

قال المفسرون أقسم ــ تعالى ــ بالليل ؛ لأنه سكن لكافة الخلق، يأوي فيه الإنسان والحيوان إلى مأواه، ويسكن عن الاضطراب والحركة، ثم أقسم بالنهار ؛ لأنه فيه حركة الخلق وسعيهم إلى إكتساب الرزق، والحكمة في هذا القسم، ما في تعاقب الليل والنهار من مصالح لا تحصى، فانه لو كان العمر كله ليلا لتعذر المعاش، ولو كان كله نهارا لما سكن الإنسان إلى الراحة، ولاختلت مصالح البشر.[٣]

وقال ابن عاشور: واختير القسم بالليل والنهار لمناسبتِه للمقام ؛ لأن غرض السورة بيان البون بين حال المؤمنين والكافرين في الدنيا والآخرة.[٤]

فالليل والنهار بينهما من البعد والاختلاف ما يشبه اختلاف وبعد بين من اجتهد وزكى نفسه فنجاها، ومن أهلك نفسه فدساها، وهو المعنى الذى تعرضت له سورة الشمس المتقدمة وبينته.

وقال ابن عاشور ــ أيضا ــ: وابتدئ في هذه السورة بذكر الليل، ثم ذكر النهار عكسَ ما في سورة الشمس ؛ لأن هذه السورة نزلت قبل سورة الشمس بمدة، وهي سادسة السور. وأيَّامئذٍ كان الكفر مخيماً على الناس إلا نفراً قليلاً، وكان الإسلام قد أخذ في التجلي فناسب تلك الحالة بالإشارة إلى تمثيلها بحالة الليل حين يعقبه ظهور النهار، ويتضح هذا في جواب القسم بقوله : (إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى) إلى قوله : (إِذَا تَرَدَّى).[٥]

وأقسم ثالثا بقوله (وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى) اختلف في لفظة (ما) فقيل : إنها مصدرية ومعنى الآية على هذا الوجه أى وخلق الذكر والأنثى.

---

(١) لباب التأويل فى معانى التنزيل لعلاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن ٢٥٣/٧ نشر دار الفكر ــ بيروت.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٨٠/٢٠

(٣) مفاتيح الغيب ١٧٩/٣١، صفوة التفاسير ٥٦٩/٣

(٤) التحرير والتنوير ٣٧٨/٣٠

(٥) التحرير والتنوير ٣٧٨/٣٠

وقيل : إنها موصولة فيكون المعنى والذى خلق الذكر والأنثى.

وفي المراد بالذكر والأنثى قولان : أحدهما : آدم وحواء ؛ قاله ابن عباس والحسن والكلبي. الثاني : يعني جميع الذكور والإناث من بني آدم والبهائم ؛ لأن اللّه ــ تعالى ــ خلق جميعهم من ذكر وأنثى من نوعهم.(١)

وقد أقسم ــ تعالى ــ بذاته على خلق النوعين الذكر والأنثى ؛ للتنبيه على أنه الخالق المبدع الحكيم، إذ لا يعقل أن هذا التخالف بين الذكر والأنثى يحصل بمحض الصدفة، من طبيعة بلهاء لا شعور لها، فإن الأجزاء الأصلية في المني متساوية، فتكوين الولد من عناصر واحدة، تارة ذكرا، وتارة أنثى، دليل على أن واضع هذا النظام عالم بما يفعل، محكم لما يصنع.(٢)

جواب القسم : (إِنَّ سَعْيَكُمْ) أي : عملكم (لَشَتَّى) ؛ لمختلف، جمع شتيت، أي : إنّ مساعيكم لأشتات مختلفة.(٣)

قال القرطبى : (إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى) هذا جواب القسم. والمعنى: إن عملكم لمختلف. وقال عكرمة وسائر المفسرين: السعي: العمل، فساع في فكاك نفسه، وساع في عطبها، يدل عليه قوله عليه السلام: (النَّاسُ غَادِيَانِ : فَمُبْتَاعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا، وَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُوبِقُهَا).(٤)

وإنما قيل للمختلف شتى لتباعد ما بين بعضه وبعضه. أي إن عملكم لمتباعد بعضه من بعض لان بعضه ضلالة وبعضه هدى. أي فمنكم مؤمن وبر، وكافر وفاجر، ومطيع وعاص. وقيل: لَشَتَّى أي لمختلف الجزاء، فمنكم مثاب بالجنة، ومعاقب بالنار. وقيل: أي لمختلف الأخلاق فمنكم راحم وقاس، وحليم وطائش وجواد وبخيل، وشبه ذلك.(٥)

وكل ما ذكره الإمام القرطبى فى معنى الاختلاف مما تحتمله الآية.

المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٨٢/٢٠

(٢) صفوة التفاسير ٥٦٩/٣

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٤٩٨/٥

(٤) مسند أحمد ٣٣٢/٢٢ تحقيق شعيب الأرنؤوط ــ عادل مرشد، وآخرون ــ نشر مؤسسة الرسالة ــ ط أولى ــ ١٤٢١هـ ــ ٢٠٠١م. وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٢٠/٤ وقال : رواه الطبرانى وإسناده جيد.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٨٢/٢٠

إن الله ــ جلت حكمته ــ أقسم فى هذه الآيات بالليل وما انطوى عليه من حكم حال تغشيه، وبالنهار وما اشتمل عليه من أسرار حال تجليه، وبقدرته على خلق الذكر والأنثى واختلاف ما بينهما مع أن الأجزاء الأصلية فى المنى متساوية، على اختلاف مساعى الناس، فمنهم متق وفاجر، ومنهم ناج وهالك، وهو الخالق لكل منهما. وتذكر السورة بعد جواب القسم اختلاف أعمال الناس، فمنهم المعطى والمتقى والمصدق بالحسنى، ومنهم البخيل والمستغنى والمكذب بالآخرة (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى. وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى. وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى. وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى).[١]

فالله ــ تعالى ــ أقسم بزمان السعى وهو الليل والنهار، وبالساعى وهو الذكر والأنثى ؛ على اختلاف السعى، كما اختلف الليل والنهار، والذكر والأنثى.[٢]

قال ابن كثير: ولما كان القسم بهذه الأشياء المتضادة كان المقسم عليه أيضا متضادا ؛ ولهذا قال ــ تعالى ــ (إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى) أي أعمال العباد التي اكتسبوها متضادة ــ أيضا ــ ومتخالفة فمن فاعل خيرا ومن فاعل شرا.[٣]

قال ابن عاشور: ومناسبة المقسم به للمُقْسَمِ عليه أن سعي الناس منه خير ومنه شر، وهما يماثلان النور والظلمة، وأن سعي الناس ينبثق عن نتائج منها النافع ومنها الضار، كما ينتج الذكر والأنثى ذرية صالحة وغير صالحة.[٤]

المبحث الرابع عشر: الأسرار والعبر فى الاستفتاح بالقسم فى أول سورة الضحى.

اتفق العلماء من المحدثين والمفسرين على أن سبب نزول سورة الضحى، هو إبطاء الوحى فى أوائله على الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ حتى شق ذلك عليه، وقيل فيما قيل : ودع محمدا ربه وقلاه.

أخرج البخارى ومسلم عن جندب بن سفيان، قال : اشْتَكَى النَّبِيُّ ــ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ــ فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَةً أَوْ لَيْلَتَيْنِ، فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ يَا مُحَمَّدُ : مَا أُرَى شَيْطَانَكَ إِلَّا قَدْ تَرَكَكَ

---

(١) الآيات من ٥ــ١٠

(٢) التبيان لابن القيم ص٨٨

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤١٧/٨

(٤) التحرير والتنوير ٣٧٨/٣٠

فَأَنْزَلَ اللَّهُ ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ (وَالضُّحَى. وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى. مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى).[١]

وأخرج الحاكم عن زيد بن أرقم قال : مكث رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أياما لا ينزل عليه جبريل، فقالت أم جميل امرأة أبي لهب : ما أرى صاحبك إلا قد ودعك وقلاك، فأنزل الله (والضحى).[٢] ففى رواية الحاكم جاء تعيين اسم المرأة، وأنها أم جميل امرأة أبى لهب.

معانى آيات القسم، وما اشتملت عليه من أسرار وعبر:

الضحى : الأكثرون على أن المراد بالضحى وقت الضحى وهو صدر النهار حين ترتفع الشمس ويظهر سلطانها. وقيل: هو النهار كله لإقرانه بالليل في القسم وهو ضعيف.[٣] والأول هو الأولى، إذ إنه قول جمهور المفسرين، ولأن الضحى يطلق كما هو معروف على وقت ارتفاع الشمس بعد إشراقها، وهو الأنسب بالقسم كما سيأتى بيانه.

(وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى) سكَن، المراد : سكون الناس والأصوات فيه، أو ركد ظلامه، من : سجا البحر إذا سكنت أمواجه. ومنه استُعير تَسْجِيَةُ الميتِ، أي: تَغْطِيَتُه بالثوبِ.[٤]

وجواب القسم:(ما ودّعَكَ ربُّك) أي : ما تركك منذ اختارك، وودع من التوديع وهو في الأصل من الدعة، وهو أن تدعو للمسافر بأن يدفع الله ــ تعالى ــ عنه كآبة السفر وأن يبلغه الدعة وخفض العيش، كما أن التسليم دعاء بالسلامة ثم صار متعارفا في تشييع المسافر وتركه ثم استعمل في الترك مطلقا وفسر به هنا أي ما تركك ربك.[٥]

(وَمَا قَلَى) أي : وما أبغضك منذ أحبك. من القِلاَ ــ بكسر القاف ــ وهو شدة البغض، يقال : قلا فلان فلانا يقليه، إذا كرهه وأبغضه بشدة. ومنه قوله ــ تعالى ــ:

---

(١) صحيح البخارى، كتاب : فضائل القرآن، باب: كَيْفَ نَزَلَ الْوَحْيُ وَأَوَّلُ مَا نَزَلَ ص ١٠٦٤، صحيح مسلم، كتاب :الجهاد والسير، باب : باب مَا لَقِيَ النَّبِيُّ ــ صلى الله عليه وسلم ــ مِنْ أَذَى الْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ١٨٢/٥

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك، كتاب : التفسير، تفسير سورة والضحى ٥٧٣/٢. وقال الحاكم: حديث صحيح إلا أنى وجدت به علة، وكذا قال الذهبى.

(٣) غرائب القرآن للنيسابورى٥١٤/٦

(٤) المفردات للراغب ٤٦١/١، الدر المصون ٥٣٧/٦

(٥) المفردات للراغب ٥٠٠/٢، روح المعانى١٥٥/٣٠

(إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِّنَ القالين).[١]

ففى هاتين الآيتين أقسم الله ــ تعالى ــ بوقت الضحى، وهو صدر النهار حين ترتفع الشمس وأقسم بالليل إذا اشتد ظلامه، وغطى كل شيء في الوجود.

قال ابن كثير: هذا قسم منه ــ تعالى ــ بالضحى وما جعل فيه من الضياء، وبالليل إذا سكن فأظلم وأدلهم، وذلك دليل ظاهر على قدرته ــ تعالى ــ.[٢]

مناسبة القسم لجوابه:

ذكر المفسرون والعلماء أقوالا تظهر وجه المناسبة بين القسم بالضحى والليل مع ما جاء فى جواب القسم فى قوله ــ تعلى ــ(مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى).

منها : أن المقسم عليه عدم تركه ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولا التخلي عنه، فجاء بالمقسم به قسمي الزمن ليلاً ونهاراً، كأنه يقول له : ما قلاك ربك ولا تخلى عنك، لا في ضحى النهار حيث تنطلق لسعيك، ولا في ظلمة الليل حين تأوي إلى بيتك.[٣]

ومنها : ما ذكره ابن القيم حيث قال: أقسم بآيتين عظيمتين من آياته، دالتين على ربوبيته وهما الليل والنهار...فتأمل مطابقة هذا القسم ــ وهو نور الوحى الذى وافاه بعد احتباسه عنه حتى قال أعددؤه : " وَدَّعَ محمدا ربُّه. فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحى ونوره، بعد ظلمة احتباسه واحتجابه.[٤]

وهذا ــ أيضا ــ ما قاله السيوطى ــ رحمه الله ــ مجليا التلاؤم بين هذا القسم وجوابه ــ : وتأمل مطابقة هذا القسم وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه، فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل، على ضوء الوحي ونوره، بعد ظلمة احتباسه واحتجابه.[٥]

وذهب الشيخ محمد عبده إلى قريب هذا إذ ذهب إلى أن في القَسَم إشارة إلى أنَ ما كان من سطوع الوحي على قلبه أوّل مرة بمنزلة الضحى تقوى به الحياة وتنمو

---

(١) سورة الشعراء، آية: ١٦٨ وانظر الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٩٤، التفسير الوسيط ١٥/٦٠٥

(٢) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٢٥

(٣) أضواء البيان٨/٤٤٥

(٤) التبيان لابن القيم ص ١١٠

(٥) الإتقان فى علوم القرآن٢/١٣٥

النامیات، وما عرض بعد ذلك فهو بمنزلة الليل إذا سكن لتستريح فيه القوى ولتستعد فيه النفوس لما يستقبلها من العمل، فهناك إذن تقابل بين صورٍ حسية كل منها يقابل صوراً معنوية.

فالتقابل في سورة الضحى صورة مادية وواقع حسي يشهد به الناس في كل يومٍ تألق الضوء في ضحوة النهار ثم فتور الليل إذا سجا وسكن، دون أن يختل نظام الكون أو يكون في توارد الحالين عليه ما يبعث على إنكارٍ، بل دون أن يخطر على بال أحدٍ أن السماء قد تخلت عن الأرض أو أسلمتها إلى الظلمة والوحشة بعد تألق الضوء في ضحى النهار، فأيّ عجبٍ في أن يجيء بعد أنس الوحي وتجلي نوره على الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ مدّة سكونٍ يفتر فيها الوحي على نحو ما نشهد من الليل الساجي يوافي بعد الضحى المتألق![1]

ويقول الطاهر بن عاشور: ومناسبة القسم بالضحى والليل : أن الضحى وقتُ انبثاق نور الشمس فهو إيماء إلى تمثيل نزول الوحي وحصول الاهتداء به، وأن الليل وقت قيام النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالقرآن، وهو الوقت الذي كان يَسمع فيه المشركون قراءتَه من بيوتهم القريبة من بيته أو من المسجد الحرام.[2]

ومنها : أن الليل والنهار لا يسلمان من الزيادة والنقصان فيكف تطمع أن تسلم عن الخلق ؟

قال الرازى : كأنه ــ تعالى ــ يقول: انظر إلى جوار الليل مع النهار لا يسلم أحدهما عن الآخر بل الليل تارةً يَغلِب وتارةً يُغلب، فكيف تسلم عن الخلق، فمرةً تزداد ساعات الليل ومرةً تزداد ساعات النهار، ومرةً بالعكس فلا تكون الزيادة ولا النقصان لقلى بل لحكمة، وكذا الرسالة وإنزال الوحي بحسب المصالح، فمرةً إنزال ومرةً حبس فلا كان الإنزال عن هوى ولا كان الحبس عن قلى.[3]

وقال النيسابورى : ما الحكمة في تخصيص القسم في أول هذه السورة بالضحى والليل ؟ والجواب لأن ساعات النهار كلما تنقص فإن ساعات الليل تزداد وبالعكس، فلا

---

(١) التفسير البيانى١/٢٦

(٢) التحرير والتنوير٣٠/٣٩٤ــ٩٩٥

(٣) مفاتيح الغيب٣١/١٨٩

تلك الزيادة للهوى ولا ذاك النقصان للقلى بلى للحكمة، فكذا الرسالة وإنزال الوحي بحسب المصالح فمرة إنزال ومرة حبس لاعن الهوى ولا عن القلى.(١)

وهذا هو ما يتناسب مع ما جاء فى سبب النزول من قول المشركين وادعائهم أن الله ــ تعالى ــ تخلى عن نبيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقلاه. وهذا يجعل الأمر فطريا وجاريا على سنة الله ــ تعالى ــ فى الكون من أن ضحى النهار يعقبه ليل هادئ ساكن.

الحكمة فى استخدام كلمة (والضحى) بدل والفجر أو النهار؟

الضحى هو وقت إشراق الشمس أما النهار فهو كل الوقت من أول النهار إلى آخره، والضحى يمثل وقت ابتداء حركة الناس يقابله الليل إذا سجى وهو وقت السكون والراحة. والفجر هو أول دخول وقت الفجر ولا يكون هناك ضوء بعد أو نور كوقت الضحى بعد شروق الشمس.(٢)

وقد جاء القسم بالضحى أولا، ثم القسم بالليل إذا سجى ؛ لأن الضحى هو نور الوحي وكان السكون بعد الوحي، وكان القسم على اثر انقطاع الوحي فانقطاع الوحي هو الذي تأخر وليس العكس لذا جاء قسم الضحى أولاً ثم الليل.(٣)

وقيل : وفي تقديم الضحى على الليل إشارة إلى أن الحياة أولى للمؤمن من الموت إلى أن تحل كمالاته الممكنة له. ــ وأيضاً ــ إنه ذكر الضحى حتى لا يحصل اليأس من روحه، ثم عقبه بالليل حتى لا يحصل الأمن من مكره.(٤)

ومناسبة قوله (وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى) للقسم :

أن الله ــ تعالى ــ لم يترك رسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليتمه أو لحاجته أو للضلال هذا من ناحية ؛ ومن ناحية أخرى هي مرتبطة بالقسم فقد أقسم الله ــ تعالى ــ بالضحى والليل وما سجى واليتم ظلمة والإيواء هو النور وكذلك الضلال ظلمة والهدى نور (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ)(٥) والحاجة والعيلة ظلمة أيضاً والغنى نور وبهجة.

---

(١) غرائب القرآن للنيسابورى ٥١٥/٦

(٢) لمسات بيانية ص٤١٠

(٣) لمسات بيانية للسامرائى ص٤١٥

(٤) غرائب القرآن للنيسابورى ٥١٥/٦

(٥) سورة البقرة، آية: ٢٥٧

ففي هذه الآيات بدأ ـــ سبحانه وتعالى ـ بالظلمة ثم النور (اليتم ثم الإيواء، الضلال ثم الهدى العيلة ثم الغنى وهذا ليناسب ويتوافق مع قوله ـ تعالى ـ (وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى) والأولى هي الظلمة أما الآخرة فهي النور وهي خير له من الأولى.[١]

المبحث الخامس عشر: الأسرار والعبر فى الاستفتاح بالقسم فى أول سورة التين

اختلف المفسرون في المراد بالمقسم به في الأول، والثاني (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ)، واتفقوا عليه في الثالث والرابع (وَطُورِ سِينِينَ. وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ).

أما التين والزيتون، فمن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : أنهما الثمرتان المعروفتان وهو قول عكرمة والحسن ومجاهد. كلهم يقول : التين : تينكم الذي تأكلون، والزيتون : زيتونكم الذي تعصرون.[٢]

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالتين مسجد دمشق، والزيتون بيت المقدس. وقد روى ذلك عن كعب الأحبار، وقتادة، و ابن زيد.[٣] وأرادوا منابت التين والزيتون بقرينة الطور والبلد الأمين، على أن منبت التين والزيتون لعيسى، وطور سنيين لموسى، والبلد الأمين لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ.[٤]

ولكن يمكن الجمع بين القولين، فنقول إن المراد بهما الشجرتان المعروفتان، وإرادتهما تشمل إرادة منبتهما، وهو أرض بيت المقدس فإنها أكثر البقاع زيتونا وتينا.[٥]

فالله ـ تعالى ـ أقسم باتين والزيتون في هذه الآيات، لكثرة منافعهما وفوائدهما.

فمن منافع التين وفوائده أنه غذاء وفاكهة ودواء، أما كونه غذاء فالأطباء زعموا أنه طعام لطيف سريع الهضم لا يمكث في المعدة يلين الطبع ويخرج الترشح ويقلل البلغم ويطهر الكليتين ويزيل ما في المثانة من الرمل ويسمن البدن ويفتح مسام الكبد والطحال وهو خير الفواكه وأحمدها. أما كونه دواء، فلأنه يتداوى به في إخراج فضول البدن.[٦]

---

(١) لمسات بيانية للسامرائى ص٤١٤

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١١٠/٢٠، أضواء البيان ٣/٩

(٣) معالم التنزيل ٤٦٨/٨، زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى ١٦٩/٩ نشر المكتب الإسلامى ـ بيروت ـ ط ثالثة ـ ١٤٠٧هـ، الجامع لأحكام القرآن ١١١/٢٠

(٤) أضواء البيان ٣/٩

(٥) التبيان ص ٦٩

(٦) مفاتيح الغيب ٩/٣٢

أما الزيتون فهو فاكهة وإدام ودواء ولو لم يكن له سوى اختصاصه بدهن كثير المنافع مع حصوله في بقاع لا دهنية فيها كالجبال لكفى به فضلاً وشجرته هي الشجرة المباركة المشهورة في التنزيل.(١)

ويقرر العلم الحديث أن شجرة الزيتون من الأشجار الخشبية التى تعمر طويلا لمدد تزيد على مئات السنين وتثمر أثمارا مستمرة بغير جهد من الإنسان، كما تتميز بأنها دائمة الخضرة جميلة المنظر، وتفيد الأبحاث العلمية أن الزيتون يعتبر مادة غذائية جيدة ففيه نسبة كبيرة من البروتين كما يتميز بوجود الأملاح الكلسية والحديدية والفسفاتية وهى مواد هامة وأساسية في غذاء الإنسان، وعلاوة على ذلك فإن الزيتون يحتوى على فيتامين ا، ب ويستخرج من ثماره زيت الزيتون الذى يحتوى على نسبة عالية من الدهون السائلة التى تفيد الجهاز الهضمى عامة والكبد خاصة، ويفضل زيت الزيتون كافة أنواع الدهون الأخرى نباتية أو حيوانية لأنه لا يسبب أمراضا للدورة الدموية أو الشرايين كغيره من الدهون، كما أنه ملطف للجلد إذ يجعله ناعما مرنا، ولزيت الزيتون استعمالات أخرى كثيرة في الصناعة إذ يحضر منه بعض الصناعات ويدخل في تركيب أفضل أنواع الصابون.

فلأهمية الزيتون من الناحية الغذائية والدوائية أقسم الله ــ سبحانه و تعالى به في قوله ــ تعالى ــ:(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ. وَطُورِ سِينِينَ. وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ) للتنويه بشأن الزيتون وبركته وعظيم منفعته، ويقول رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إشادة بنعمة الزيتون (كُلُوا الزَّيْتَ وَائْتَدِمُوا بِهِ وَادَّهِنُوا بِهِ فَإِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ).(٢)

قوله ــ تعالى ــ (وَطُورِ سِينِينَ) اتفق المفسرون على أن المراد بطور سينين : الجبل الذى كلم الله ــ تعالى ــ عليه موسى ــ عليه السلام ــ. وسينين، وسيناء، وسينا، اسم للبقعة التى فيها هذا الجبل.

---

(١) روح البيان ١٠/٣٥٩

(٢) سنن الدارمي لعبد الله بن عبدالرحمن أبو محمد الدارمي ٢/١٣٩ والحديث إسناده حسن. تحقيق : فواز أحمد زمرلي ، خالد السبع العلمي نشردار الكتاب العربي ــ بيروت ــ ط أولى ١٤٠٧. وينظر القرآن وإعجازه العلمى لمحمد إسماعيل إبراهيم ص ١٦٣ ــ ١٦٤ دار الفكر العربى للطباع والنشر.

قال الإمام الشوكانى : " وطور سينين " هو الجبل الذى كلم الله عليه موسى، اسمه الطور. ومعنى سينين : المبارك الحسن.. وقال مجاهد : سينين كل جبل فيه شجر مثمر، فهو سينين وسيناء.(١)

فأقسم الله ــ سبحانه ــ بطور سيناء ؛ لأنه من البقاع المباركة، وأعظم بركة حلت به ووقعت فيه، تكليم الله ــ تعالى ــ، لنبيه موسى ــ عليه السلام ــ.

ثم أقسم ــ سبحانه وتعالى ــ بالبلد الأمين فى قوله ــ تعالى ــ (وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ) وهو مكة المكرمة، مكان مولد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ومبعثه ومكان البيت الذي هو هدى للعالمين. وهو أفضل البقاع عند الله وأحبها إليه كما جاء في الحديث الشريف،(٢) فتدرّج من الفاضل إلى الأفضل ومن الشريف إلى الأشرف.

وقد وصف الله هذا البلد بصفة (الأمين) وهي صفة اختيرت هنا اختياراً مقصوداً لا يسدُّ مسدّها وصف آخر. فالأمين وصف يحتمل أن يكون من الأمانة، كما يحتمل أن يكون من الأمن. وكلا المعنيين مُراد.

فمن حيث الأمانة وُصف بالأمين لأنه مكان أداء الأمانة وهي الرسالة. والأمانة ينبغي أن تؤدى في مكان أمين. فالرسالة أمانة نزل بها الروح الأمين وهو جبريل، وأداها إلى الصادق الأمين وهو محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ، في البلد الأمين وهو مكة. فاختير الوصف ههنا أحسن اختيار وأنسبه. فالأمانة حملها رسول موصوف بالأمانة فأداها إلى شخص موصوف بالأمانة في بلد موصوف بالأمانة.

وأما من حيث الأمن فهو البلد الآمن قبل الإسلام وبعده، دعا له سيدنا ابراهيم ــ عليه السلام ــ بالأمن قبل أن يكون بلداً، وبعد أن صار بلداً فقال أولاً: (رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا)(٣) وقال فيما بعد: (رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا)(٤) فهو مدعو له بالأمن من أبي الأنبياء.

---

(١) فتح القدير ٥/٤٦٥

(٢) ففى الحديث عن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنه قال : والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت. المستدرك على الصحيحين، كتاب : الهجرة ٣/٨ وقال الحاكم: على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبى.

(٣) سورة البقرة، آية:١٢٦

(٤) سورة إبراهيم، آية:٣٥

وقد استجاب الله سبحانه هذه الدعوة قال ــ تعالى ــ : (وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا)[١] وقال: (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا).[٢]

وبهذا يتضح لنا التناسب بين هذه الأقسام التى أقسم الله ــ تعالى ــ بها، فالقسم بالتين والزيتون، وهما الشجرتان المثمرتان المعروفتان، يشمل القسم بمنبتهما أرض بيت المقدس تلك البقعة المباركة، وفى هذا إشارة إلى مظهر عبد الله ورسوله عيسى ابن مريم، والقسم بطور سينين إشارة إلى مظهر عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران ــ عليه السلام ــ، إنه الجبل الذى ناجى ربه منه، والقسم بالبلد الأمين مكة المكرمة ــ زادها الله تشريفا وتكريما ــ مظهر عبده وخاتم رسله محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ.

وبهذا ترى أن الله ــ تعالى ــ تدرج من التين إلى الزيتون إلى طور سنين إلى بلد الله الأمين فختم القسم بالإشارة إلى موطن الرسالة المحمدية الخاتمة أشرف الرسالات.

قال الحافظ ابن كثير ــ رحمه الله ــ : قال بعض الأئمة: هذه مَحَالٌّ ثلاثة، بعث الله في كل واحد منها نبيًا مرسلا من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار، فالأول: محلة التين والزيتون، وهي بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى ابن مريم. والثاني: طور سينين، وهو طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى بن عمران. والثالث: مكة، وهو البلد الأمين الذي من دخله كان آمنا، وهو الذي أرسل فيه محمدا ــ صلى الله عليه وسلم ــ.

قالوا : وفي آخر التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة: جاء الله من طور سيناء ــ يعني الذي كلم الله عليه موسى بن عمران ــ وأشرق من سَاعيرَ ــ يعني بيت المقدس الذي بعث الله منه عيسى ــ واستعلن من جبال فاران ــ يعني: جبال مكة التي أرسل الله منها محمدًا ــ فذكرهم على الترتيب الوجودي بحسب ترتيبهم في الزمان، ولهذا أقسم بالأشرف، ثم الأشرف منه، ثم بالأشرف منهما.[٣]

وقال ابن القيم فى التبيان : " فأقسم ــ سبحانه ــ بهذه الأمكنة الثلاثة العظيمة التي هي مظاهر أنبيائه ورسله، أصحاب الشرائع العظام والأمم الكثيرة. فالتين والزيتون المراد به نفس الشجرتين المعروفتين ومنبتهما وهو أرض بيته المقدس... وهو مظهر

---

(١) سورة آل عمران، آية:٩٧

(٢) سورة البقرة، آية: ١٣٥، وانظر لمسات بيانية لفاضل السامرائى ص ٤٢٣ــ٤٢٤

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير٨/٤٣٤ــ٤٣٥

عبد الله ورسوله وكلمته وروحه عيسى بن مريم. كما أن طور سينين مظهر عبده ورسوله وكليمه موسى فإنه الجبل الذي كلمه عليه وناجاه وأرسله إلى فرعون وقومه.

ثم أقسم بالبد الأمين وهو مكة مظهر خاتم أنبيائه ورسله سيد ولد آدم. وترقى في هذا القسم من الفاضل إلى الأفضل، فبدأ بموضع مظهر المسيح، ثم ثنّى بموضع مظهر الكليم، ثم ختمه بموضع مظهر عبده ورسوله وأكرم الخلق عليه. ونظير هذا بعينه في التوراة التي أنزلها الله على كليمه موسى: (جاء الله من طور سيناء وأشرق من ساعير، واستعلن من فاران).

فمجيئه من طور سيناء بعثته لموسى بن عمران، وبدأ به على حكم الترتيب الواقع، ثم ثنّى بنبوة المسيح، ثم ختمه بنبوة محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ.[١]

وذهب ابن عاشور إلى قريب مما ذكره الإمامان ابن القيم وابن كثير ــ رحمهما الله ــ، مع إيمائه إلى أن هذا القسم تضمن الإشارة إلى أن الله ــ تعالى ــ خلق الإنسان مفطورا على معرفته بالإله لخالق، الذى بعث هؤلاء الرسل ليدلوهم عليه، حيث قال: وفي ابتداء السورة بالقَسَم بما يشمل إرادة مهابط أشهر الأديان الإلهية براعةُ استهلال لغرض السورة وهو أن الله خلق الإنسان في أحسن تقويم، أي خلقه على الفطرة السليمة مدركاً لأدلة وجود الخالق ووحدانيته. وفيه إيماء إلى أن ما خالف ذلك من النحل والملل قد حاد عن أصول شرائع الله كلها بقطع النظر عن اختلافها في الفروع.[٢]

فعلى التفسير بأن المراد بالتين والزيتون الشجرتان المعروفتان، وبطور سنين الجبل الذى كلم الله ــ تعالى ــ عليه موسى ــ عليه السلام ــ، وبالبلد الأمين مكة المكرمة مولد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ومبعثه، تكون المناسبة بين هذه المحالّ المُقسَم بها ظاهرة المعنى.

وجملة:(لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ...)[٣] وما عطف عليه جواب القسم.[٤]

المراد بالإنسان هنا : جنسه.[٥] أى جنس الإنسان.

---

(١) التبيان ص٦٩، ٧١، ٧٢

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٤٢٢ــ٤٢٣

(٣) سورة التين، آية: ٤

(٤) ينظر لباب التأويل ٧/٢٦٦ نشر دار الفكر.

(٥) البحر المحيط ٨/٤٨٦

ومعنى قوله : فى أحسن تقويم، أى فى أحسن صورة وشكل واعتدال ؛ لأنه خلق كل شيء منكبا على وجهه، وخلقه هو مستويا، وله لسان ذلق، ويد وأصابع يقبض بها.

وقال أبو بكر بن طاهر : مُزيناً بالعقل، مُؤدياً للأمر، مَهدياً بالتمييز، مديد القامة ؛ يتناول مأكوله بيده.

قال ابن العربي : ليس لله ــ تعالى ــ خلق أحسن من الإنسان، فإن اللّه خلقه حيا عالما، قادرا مريدا متكلما، سميعا بصيرا، مدبرا حكيما. وهذه صفات الرب سبحانه، وعنها عبر بعض العلماء، ووقع البيان بقوله : (إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ)[١] يعني على صفاته التي تقدم ذكرها.[٢] و يظهر من كلام العلماء أن وصف الإنسان بأحسن تقويم يشمل كل ما هو أحسن فى الإنسان، فهو عام فى كل ما يشمله الحسن.

وقد جاء جواب القسم متناسبا مع المُقسَم به تناسباً لطيفاً ولاءمه ملاءمة بديعة. فإنه أقسم بالرسالات على بداية الإنسان ونهايته فقال: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) وهذه بدايته ثم قال: (ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ)[٣] وهذه نهايته.

ثم لما كان الناس في إجابة هذه الدعوة فريقين منهم مَنْ أجاب ومنهم من أبى، ذكر حال الفريقين. فذكر حال الأكثرين وهو المردودون إلى أسفل سافلين، والآخرين وهم المؤمنون الذين لهم أجر غير ممنون.[٤]

ومع التأمل فى هذه الآيات التى اشتملت على القسم وجوابه، ندرك أن المقسم عليه في هذه السورة يتكون من أمور ثلاثة :

أــ دليل من أدلة القدرة الإلهية على البعث، والجزاء، وهو قوله ــ تعالى ــ:(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ).

ب ــ وعيد صارم شديد، وهو قوله ــ تعالى ــ :(ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ) وأسفل سافلين: النار على الصحيح.[٥]

---

(١) صحيح مسلم، كتاب : البر والصلة والآداب، باب : النَّهْيِ عَنْ ضَرْبِ الْوَجْهِ ٣٢/٨

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١١٤/٢٠

(٣) الآية: ٥

(٤) لمسات بيانية السامرائى ص٤٢٦

(٥) التفسير الوسيط ٦٣٣/١٥

ورددناه : معناه ونرده، فعبر بالماضي موضع المضارع المستقبل، إيذانا بأن الرد أسفل سافلين واقع لا محالة، وتشبيها للمستقبل المحقق وقوعه، بالماضي الواقع فعلا.

ج ــ وعد حسن، وهو قوله ــ تعالى ــ:(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)[١] أي: مقطوع. والقسم في هذه السورة أكثر انصبابا على الأمرين الأخيرين، أي: على الوعد والوعيد.[٢]

المبحث السادس عشر: الأسرار والعبر فى الاستفتاح بالقسم فى أول سورة العاديات

أقسم الله ــ تعالى ــ فى هذه السورة بـ العاديات : والعاديات صفة لموصوف محذوف، واختلف فى الموصوف المحذوف، هل المراد الخيل يعني : والخيل العاديات، أو المراد الإبل يعني: والإبل العاديات؟

قولان للمفسرين: فمنهم من قال: إن الموصوف هي الإبل، والتقدير: والإبل العاديات، ويعني بها الإبل التي تعدوا من عرفة إلى مزدلفة، ثم إلى منى، وذلك في مناسك الحج، واستدلوا لهذا بأن هذه السورة مكية، وأنه ليس في مكة جهاد على الخيل حتى يقسم بها.[٣]

أما القول الثاني لجمهور المفسرين، وهو الصحيح فإن الموصوف هو الخيل، والتقدير: والخيل

العاديات،[٤] والخيل العاديات معلومة للعرب حتى قبل مشروعية الجهاد، هناك خيل تعدو على أعدائها سواء بحق أو بغير حق فيما قبل الإسلام، أما بعد الإسلام فالخيل تعدوا على أعدائها بحق.

ومما يدل على رجحان أن المراد بالعاديات الخيل قول الإمام الرازى: واعلم أن ألفاظ هذه الآيات تنادي أن المراد هو الخيل ؛ وذلك لأن الضبح لا يكون إلا للفرس، واستعمال هذا اللفظ في الإبل يكون على سبيل الاستعارة كما استعير المشافر والحافر للإنسان والشفتان للمهر والعدول من الحقيقة إلى المجاز بغير ضرورة لا يجوز، وأيضاً

---

(١) الآية: ٦

(٢) أسلوب القسم الظاهر فى القرآن الكريم ص٤٠

(٣) جامع البيان ٢٤/٥٥٩، معالم التنزيل ٨/٥٠٥، التبيان لابن القيم ص ١١٨

(٤) مفاتيح الغيب ٣٢/٦١، فتح القدير ٥/٤٨٢

فالقدح يظهر بالحافر ما لا يظهر بخف الإبل، وكذا قوله (فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً) لأنه بالخيل أسهل منه بغيره.(١)

ومما يؤكد حمل العاديات على الخيل ويبعد حملها على الإبل، أن المشهد الذى عرضت له السورة فيه سرعة فائقة، أكد القرآن أمر هذه السرعة بصفة جريها، وصوت أنفاسها وتطاير الشرر من أرجلها، ومن بلوغها غايتها قبل أن ينبلج النهار وتطلع الشمس، وحركة الإبل لا يمكن أن تكون بهذه السرعة.(٢)

والعاديات: جمع العادية، وهو اسم فاعل من العَدْو وهو السيْر السريع.(٣)

والضبح : صوت يسمع من صدور الخيل عند شدة الجري، وليس بصهيل، بل هو صوت نفس.(٤)

(فَالمُورِيَاتِ قَدْحاً): هي الخيل توري النار بحوافرها إذا سارت في الحجارة لا سيما عند سلوك الأوعار.(٥)

والقَدْح : ضَرْب شيءٍ لكى يخرج من بينهما شرر النار.(٦)

والمراد به هنا : النار التى تخرج من أثر احتكاك حوافر الخيل بالحجارة خلال عدوها بسرعة.(٧)

قوله ــ تعالى ــ (فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً) الخيل تغير على العدو عند الصبح ؛ عن ابن عباس وأكثر المفسرين. وكانوا إذا أرادوا الغارة سروا ليلا، ويأتون العدو صبحا ؛ لأن ذلك وقت غفلة الناس.(٨)

(فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً) : أي غبارا ؛ يعني الخيل تثير الغبار بشدة العدو في المكان الذي أغارت به. والكناية في "به" ترجع إلى المكان أو إلى الموضع الذي تقع فيه الإغارة. وإذا

---

(١) مفاتيح الغيب ٦١/٣٢

(٢) القسم فى اللغة وفى القرآن لمحمد المختار السلامى ص ١٣٢ نشر دار الغَرب الإسلامى ــ بيروت ــ ط أولى.

(٣) التحرير والتنوير ٤٩٨/٣٠

(٤) فتح القدير ٤٨٢/٥

(٥) السراج المنير ٤٢٣/٤

(٦) التفسير الوسيط ٦٨١/١٥

(٧) التفسير الوسيط ٦٨١/١٥

(٨) الجامع لأحكام القرآن ١٥٨/٢٠

علم المعنى جاز أن يكني عما لم يجر له ذكر بالتصريح ؛ كما قال (حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ).[١]

(فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا) : أي فتوسطن به جموع الأعداء، وأصبحن وسط المعركة.[٢]

ففى هذه الآيات أقسم ــ سبحانه وتعالى ــ بأقسام ثلاثة على أمور ثلاثة، تعظيما للمقسم به وهو خيل المجاهدين، في سبيل الله، التي تسرع على أعداء الله، وتقدح النار بحوافرها وتغير على الأعداء وقت الصباح، فتثير الغبار، وتتوسط العدو فتصيبه بالرعب والفزع ! ! أما الأمور التي أقسم عليها، فهي قوله (إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ. وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ. وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ).[٣]

قال البقاعى: وإنما أقسم بها ــ أى الخيل ــ ليتأمل ما فيها من الأسرار الكبار التي باينت به أمثالها من الدواب كالثور مثلاً والحمار ليعلم أن الذي خصها بذلك فاعل مختار واحد قهار فالقسم في الحقيقة به سبحانه.[٤]

فالإمام البقاعى ــ رحمه الله ــ يرى أن القسم بالخيل هنا هو فى الحقيقة قسم بخالقها ؛ للدلالة على بيان قدرة خالقها الذى خصها بأسرار ليست فى غيرها من المخلوقات. ولكن ما قاله البقاعى من أن القسم بالعاديات قسم بخالقها يصدق على كل الأقسام الى أقسم الله ــ تعالى ــ فيها بمخلوقاته.

وهذا لا يمنع أن نلتمس وراء هذا من أسرار وحكم فيما أقسم الله ــ تعالى ــ به. وهذا ما وضحه لنا الإمام الرازى فى بيان حكمة الله ــ تعالى ــ فى القسم بالخيل، وما اشتمل عليه القسم من أسرار حيث قال : أقسم بالخيل ؛ لأن لها في العدو من الخصال الحميدة ما ليس لسائر الدواب، فإنها تصلح للطلب والهرب والكر والفر، فإذا ظننت أن النفع في الطلب عدوت إلى الخصم لتفوز بالغنيمة وإذا ظننت أن المصلحة في الهرب قدرت على أشد العدو، ولا شك أن السلامة إحدى الغنيمتين، فأقسم ــ تعالى ــ بفرس

---

(١) سورة ص، آية: ٣٢، الجامع لأحكام القرآن ١٥٨/٢٠

(٢) صفوة التفاسير٥٩٣/٣

(٣) الآيات من ٦ــ ٨

(٤) نظم الدرر ٢١١/٢٢

الغازي لما فيه من منافع الدنيا والدين وفيه تنبيه على أن الإنسان يجب عليه أن يمسكه لا للزينة والتفاخر بل لهذه المنفعة.(١)

ولك أن تتأمل إذا كان هذا شرف خيل الغزاة بهذه المرتبة حتى أقسم الله بها، فما ظنك بشرف الغزاة والمجاهدين والشهداء وفضلهم عند الله ــ تعالى ــ.

وقال ابن عاشور فى هذا السياق: ومناسبة القسم بهذه الموصوفات دون غيرها من العاديات وما عطف عليها خيل الغزاة فالقسم بها لأجل التهويل والترويع لإشعار المشركين بأنَّ غارة تترقبهم وهي غزوة بدر، مع تسكين نفس النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ، فيكون القسم بخصوص هذه الخيل إدماجاً للاطمئنان.(٢)

قوله ــ عز وجل ــ (إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ) هذا جواب القسم.(٣)

الأكثرون على أن الإنسان هو الكافر، ويحتمل أن يراد به جنس الإنسان، أى جسن الإنس مفطور على ذلك إلا من عصمه الله بلطه وتوفيقه.(٤) وحمل الإنسان على الجنس أولى ويدخل فيه الكافر دخولا أوليا.

ومعنى لكنود: أي لكفور جحود من كند النعمة كفرها ولم يشكرها. والأرض الكنود : التى لا تنبت شيئا، وامرأة كَنُدٌ أى: كفور للمعاشرة.(٥)

وعبارات المفسرين فى هذا المعنى متقاربة تدور حول معنى الكفران والجحود.

(وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ) ضمير إنه يعود على الإنسان، أى إنه شاهد على نفسه بذلك ويحتمل أن يعود الضمير إلى الله ــ تعالى ــ فيكون كالوعيد من حيث إن الله يحصى عليه أعماله.(٦)

والأول أولى ؛ لأن هو الذى يتسق مع سياق الآيات، ومع اتحاد الضمائر فيها ؛ لأن الله ــ تعالى ــ افتتح الخبر عن الإنسان بكونه كنودا (إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ)، ثم

---

(١) مفاتيح الغيب٣٢/٦١

(٢) التحرير والتنوير٣٠/٥٠٢

(٣) لباب التأويل للخازن ٧/٢٨٣

(٤) غرائب القرآن للنيسابورى٦/٥٥١

(٥) المخصص ٣/٤٢٥، الصحاح للجوهرى، ماد: كند ٣/٢١٠

(٦) غرائب القرآن للنيسابورى ٦/٥٥١

ثَنَّاهُ بأنه شهيد على ذلك (وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ)، ثم ختمه بقوله (وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) فهو بخيل بماله لحبه له.

قال أبو حيان : فتناسق الضمائر لواحد مع صحة المعنى أولى من جعلهما لمختلفين، ولا سيما إذا توسط الضمير بين ضميرين عائدين على واحد.(١)

وقوله (وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) الخير المال باتفاق المفسرين.(٢)

(لَشَدِيدٌ) أي: لبخيل، أي إنه من أجل حب المال لبخيل. يقال للبخيل: شديد ومتشدد.

وقيل: معناه وإنه لحب الخير لقوي، أي شديد الحب للخير أي المال.(٣)

قال ابن كثير: وفيه مذهبان: أحدهما أن المعنى وإنه لشديد المحبة للمال، والثاني وإنه لحريص بخيل من محبة المال وكلاهما صحيح.(٤)

ومناسبة القسم للمقسم عليه هو أن الله ــ تعالى ــ لما ذكر نعمه ومننه على الإنسان بما تضمنه شأن هذه العاديات الذى يحصل به الغزو والنصر على الأعداء، ذكر أن الإنسان كفور لنعمة ربه جاحد لها بعد أن يمكن له وينصره على عدوه، وغلب جانب الدنيا وحب المال ونسى الآخرة وما فيها من الأهوال الجسام والأحداث العظام.

ثم ختمت السورة بالاستنكار على هذا الإنسان عدم تذكره لليوم الذى يخرج فيه الناس من قبورهم، حتى يحصل ويبرز الله ما فى صدور الناس من خير وشر(أَفَلاَ يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ. وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ)(٥).

(إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ) أي عالم. والله تعالى خبير بهم في ذلك اليوم وفي غيره ، ولكن المعنى أنه يجازيهم في ذلك اليوم على كفرهم. وإنما خص أعمال القلوب بالذّكر في قوله (وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ) لأن أعمال الجوارح تابعة لأعمال القلوب.(٦)

---

(١) البحر المحيط ٥٠٢/٨

(٢) جامع البيان فى تأويل القرآن لمحمد بن جرير الطبرى ٣٩٣/٣، ٥٦٧/٢٤ تحقيق أحمد شاكر ــ نشر مؤسسة الرسالة، معالم التنزيل ٥٠٩/٨، الكشاف ٧٩٥/٤

(٣) معالم التنزيل ٥٠٩/٨

(٤) تفسير القرآن العظيم ٤٦٧/٨

(٥) سورة العاديات، الآيتان:٩ــ١٠

(٦) لباب التأويل٢٨٤/٧

المبحث السابع عشر: الأسرار والعبر فى الاستفتاح بالقسم فى أول سورة العصر

اختلف العلماء فى المراد بالعصر الذى أقسم الله به فى أول السورة، والذى سميت به السورة الكريمة. وإليك أشهر هذه الأقوال، مع ذكر الحكمة من وراء القسم به :

القول الأول : إن المراد بالعصر هو الدهر، أقسم الله ــ تعالى ــ به لما اشتمل عليه من الأعاجيب ؛ لأنه يحصل فيه السراء والضراء، والصحة والسقم والغنى والفقر، بل فيه ما هو أعجب من كل عجب، وهو أن العقل لا يقوى على أن يحكم عليه بالعدم، فإنه مجزأ مقسم بالسنة، والشهر، واليوم، والساعة، ومحكوم عليه بالزيادة والنقصان والمطابقة، وكونه ماضياً ومستقبلاً، فكيف يكون معدوماً؟ ولا يمكنه أن يحكم عليه بالوجود لأن الحاضر غير قابل للقسمة والماضي والمستقبل معدومان، فكيف يمكن الحكم عليه بالوجود؟.(١)

ثانيا: أن بقية عمر المرء لا قيمة له، فلو ضيعت ألف سنة، ثم تبت في اللمحة الأخيرة من العمر بقيت في الجنة أبد الآباد فعلمت حينئذ أن أشرف الأشياء حياتك في تلك اللمحة فكأن الدهر والزمان من جملة أصول النعم، فلذلك أقسم به ونبه على أن الليل والنهار فرصة يضيعها المكلف، وإليه الإشارة بقوله : (وَهُوَ الذى جَعَلَ اليل والنهار خِلْفَةً لّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً).(٢)

ثالثا: أنهم كانوا يضيفون الخسران إلى نوائب الدهر، فكأنه ــ تعالى ــ أقسم على أن الدهر والعصر نعمة حاصلة لا عيب فيها، إنما الخاسر المعيب هو الإنسان.(٣)

قال النيسابورى صاحب غرائب القرآن : وفي تخصيص القسم به إشارة إلى أن الإنسان يضيف المكاره والنوائب إليه ويحيل شقاءه وخسرانه عليه، فأقام الله ــ تعالى ــ به دليل على شرفه وأن الشقاء والخسران إنما لزم لإنسان لعيب فيه لا في الدهر ولذلك قال ــ صلى الله عليه وسلم ــ : (لاَ تَسُبُّوا الدَّهْرَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ).(٤)

---

(١) مفاتيح الغيب٣٢/٨٠

(٢) سورة الفرقان، آية:٦٢ مفاتيح الغيب ٣٢/٨٠

(٣) مفاتيح الغيب ٣٢/٨١

(٤) صحيح مسلم، كتاب : الألفاظ من الأدب، باب النَّهْيِ عَنْ سَبِّ الدَّهْرِ ٧/٤٥. وانظر غرائب القرآن للنيسابورى٦/٥٥٨ــ٥٥٩

رابعا: أنه ــ تعالى ــ ذكر العصر الذي بمضيه ينتقص عمرك، فإذا لم يكن في مقابلته كسب صار ذلك النقصان عن الخسران، ولذلك قال : (لَفِي خُسْرٍ) ومنه قول القائل :

إنا لنفرح بالأيام نقطعها... وكل يوم مضى نقص من الأجل

فكأن المعنى: والعصر العجيب أمره حيث يفرح الإنسان بمضيه لظنه أنه وجد الربح مع أنه هدم لعمره وإنه لفي خسر.[١]

القول الثاني : المراد بالعصر وقت العصر أحد طرفي النهار، فالله ــ تعالى ــ أقسم بوقت العصر كما أقسم ــ سبحانه ــ بالضحى وبالليل وبالفجر،[٢] والسبب فيه وجوه :

أحدها : أنه أقسم ــ تعالى ــ بالعصر كما أقسم بالضحى ؛ لما فيهما جميعاً من دلائل القدرة ولأن آخر كل نهار يشبه نهاية العالم، فالقسم بالعصر على هذا المعنى فيه تذكير للإنسان بقرب أجله.

قال النيسابوري صاحب الغرائب : أقسم الله به كما أقسم بالفجر والضحى ؛ لأن آخر النهار يشبه تخريب العالم وإماتة الأحياء كما أن أول النهار يشبه بعث الأموات وعمارة العلالم، فعند ذلك إقامة الأسواق ونصب الموازين ووضع المعاملات، وفيه إشارة إلى أن عمر الدنيا ما بقي إلا بقدر ما بين العصر إلى المغرب فعلى الإنسان أن يشتغل بتجارة لا خسران فيها فإن الوقت قد ضاق وقد لا يمكن تدارك ما فات.[٣]

فهذا الوقت وهو آخر النهار وقت الفراغ من الأعمال، يذكر الإنسان بوقت انتهاء أجله وانطواء صحيفة عمله وانتظاره لمصيره إما إلى جنة عرضها السماوات والأرض، وإما إلى نار السعير.

قال الحسن ــ رحمه الله ــ: إنما أقسم بهذا الوقت تنبيهاً على أن الأسواق قد دنا وقت انقطاعها وانتهاء التجارة والكسب فيها، فإذا لم تكتسب ودخلت الدار وطاف العيال عليك يسألك كل أحد ما هو حقه فحينئذ تخجل فتكون من الخاسرين، فكذا نقول : والعصر أي عصر الدنيا قد دنت القيامة و (أنت) بعد لم تستعد وتعلم أنك تسأل غداً عن النعيم

---

(١) مفاتيح الغيب ٣٢/٨١

(٢) لباب التأويل٧/٢٨٨، إرشاد العقل السليم٩/١٩٧

(٣) غرائب القرآن للنيسابوري٦/٥٥٩

الذي كنت فيه في دنياك، وتسأل في معاملتك مع الخلق وكل أحد من المظلومين يدعي ما عليك فإذا أنت خاسر.[١]

ثانيا: أن هذا الوقت وقت معظم، فهو وقت عظة واعتبار وإقبال على الطاعات وبعد عن المعاصي والدليل عليه قول النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ: ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يكلمهم ولا يزكيهم، وعد منهم رجل حلف بعد العصر كاذباً.[٢]

قال الرازى : فكما أقسم في حق الرابح بالضحى، فكذا أقسم في حق الخاسر بالعصر، وذلك لأنه أقسم بالضحى في حق الرابح وبشر الرسول أن أمره إلى الإقبال وههنا في حق الخاسر توعده أن أمره إلى الإدبار، ثم كأنه يقول بعض النهار : باق فيحثه على التدارك في البقية بالتوبة، وعن بعض السلف : تعلمت معنى السورة من بائع الثلج كان يصيح ويقول : ارحموا من يذوب رأس ماله، ارحموا من يذوب رأس ماله فقلت : هذا معنى : (إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ) يمر به العصر فيمضي عمره ولا يكتسب فإذا هو خاسر.[٣]

القول الثالث : أن المراد به صلاة العصر، أقسم الله ــ تعالى ــ بها ؛ لأنها الصلاة الوسطى التي نوّه ــ سبحانه وتعالى ــ بفضلها، فقال ــ تعالى ــ (حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى)[٤] وجاء في الصحيحين عن أبى موسى الأشعري أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال (مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ)[٥]... والبردان هما صلاة الصبح والعصر.

كما أقسم الله ــ تعالى ــ بها ؛ لأن التكليف في أدائها أشق لتهافت الناس في تجاراتهم ومكاسبهم آخر النهار واشتغالهم بمعايشهم.[٦]

---

(١) مفاتيح الغيب ٣٢/٨١

(٢) صحيح البخارى، كتاب: الشهادات، باب: الْيَمِينِ بَعْدَ الْعَصْرِ ص٥٥٦

(٣) مفاتيح الغيب ٣٢/٨١

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٣٨

(٥) صحيح البخارى، كتاب: مواقيت الصلاة، باب: فَضْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ ص ١٣٠، صحيح مسلم، كتاب : المساجد، باب: فَضْلِ صَلاَتَىِ الصُّبْحِ وَالْعَصْرِ وَالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِمَا ٢/١١٤

(٦) الكشاف ٤/٨٠٠، روح المعانى ٣٠/٢٢٨

القول الرابع: أنه قسم بزمان الرسول ــ عليه السلام ــ، كما أقسم بمكانه وحياته قال ــ تعالى ــ (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ. وَطُورِ سِينِينَ. وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ)[١]، وقال ــ تعالى ــ مقسماً بحياة حبيبه المصطفى ــ صلى الله عليه وسلم ــ(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)[٢].

قال الرازي : أقسم ــ تعالى ــ بزمانه كما أقسم بمكانه وبعمره، فكأنه قال وعصرك وبلدك وعمرك... ؛ كأنه ــ تعالى ــ يقول : أنت يا محمد حضرتهم ودعوتهم، وهم أعرضوا عنك وما التفتوا إليك فما أعظم خسرانهم وما أجل خذلانهم.[٣]

وقال أبو السعود : أقسم ــ تعالى ــ بعصر النبوة لظهور فضله على سائر الأعصار.[٤]

القول الخامس: قيل المراد بالعصر: الليل والنهار، ويقال لهما العصران.[٥]

وأقسم الله بالليل والنهار ؛ لأنهما من أجل النعم وأعظم الدلائل على القدرة الإلهية، وفي تقلبهما من العبر والعظات ما لا يخفي على أحد. قال ــ تعالى ــ(وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)[٦]، وقال (يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ).[٧]

وإن كنت أطمئن إلى ترجيح القول بأن المراد بالعصر، هو آخر النهار أقسم الله ــ تعالى ــ به كما أقسم بالضحى والفجر والليل، ولأن القسم بهذا الوقت فيه تذكير للإنسان بقرب انتهاء أجله، فكما أنه بحلول وقت العصر آخر النهار يوشك أن ينتهى هذا اليوم من عمر الإنسان فكذلك عمر الإنسان يوشك أن ينتهى كما انتهى هذا اليوم الذى هو جزء من عمره، وهو ما يتناسب مع المقسم عليه من إثبات الخسران للإنسان الذى لم يأخذ العظة والعبرة من هذا الوقت فأهلك نفسه وعمره بالمعاصى. ففى القسم بالعصر على هذا المعنى إشارة إلى التذكير بالحياة حين تقترب آجال الناس.

---

(١) سورة التين، الآيات من ١ــ٣

(٢) سورة الحجر، آية: ٧٢

(٣) مفاتيح الغيب ٨٢/٣٢

(٤) إرشاد العقل السليم ١٩٧/٩

(٥) معالم التنزيل ٥٢٢/٨، السراج المنير ٤٢٨/٤

(٦) سورة إبراهيم، آية: ٣٣

(٧) سورة النور، آية: ٤٤

وقوله ــ تعالى ــ (إِنَّ الإنسان لَفِي خُسْرٍ) هذا جواب القسم.[١]

والمراد بالإنسان: جنس الإنسان،[٢] فالإنسان هنا عام، وعلامة الإنسان الذي يراد به العموم أن يحل محل (ال) كلمة (كل) فهنا لو قيل: كل إنسان في خسر لكان هذا هو المعنى.

ويدخل الكافر دخولا أوليا فى الإنسان الذى أقسم الله ــ تعالى ــ على خسرانه.

والخسر: الخسران، كما قيل : الكفر في الكفران. والمعنى : أن الناس في خسران من تجارتهم إلاّ الصالحين وحدهم، لأنهم اشتروا الآخرة بالدنيا، فربحوا وسعدوا، ومن عداهم تجروا خلاف تجارتهم، فوقعوا في الخسارة والشقاوة.[٣]

فالله ــ جلت حكمته ــ يقسم فى هذه السورة بالعصر على أن الإنسان لفي خسر، أي: في خسارة وهلاك، ثم استثنى من جنس الإنسان عن الخسران من كان متصفا بصفات أربع : هى الإيمان، وعمل الصالحات، والتواصى بالحق، والتواصى بالصبر(إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) (وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقّ) أي تحاثوا أوصى بعضهم بعضاً وحث بعضهم بعضاً بالحق (وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ) وتواصوا بالصبر على طاعة الله والصبر عن المعاصي بالبعد عنها.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٧٩

(٢) تفسير الكشاف ٤/٨٠٠

(٣) تفسير الكشاف ٤/٨٠٠

الخاتمة

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، وبفضله تتنزل الخيرات، وبتوفيقه تتحقق الغايات الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

وبعد فهذا ما وفقنى الله ــ تعالى ــ لكتابته فى هذا الموضوع (الأسرار والعبر فى الاستفتاح بالقسم فى أوائل السور) وكانت هذه بعض النتائج التى أسفرت عنها هذه الدراسة:

١ــ إن القسم فى القرآن الكريم جاء فاتحة للسور المكية في سبع عشرة سورة، هى: وَالصَّافَّاتِ صَفًّا وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً، وَالطُّورِ، ولَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَالنَّجْمِ إِذا هَوى وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً، وَالنَّازِعاتِ غَرْقاً، وَالسَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ، وَالسَّماءِ وَالطَّارِقِ، وَالْفَجْرِ وَلَيالٍ عَشْرٍ، ولا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ وَالشَّمْسِ وَضُحاها، وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشى، وَالضُّحى وَاللَّيْلِ إِذا سَجى، وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ، وَالْعادِياتِ ضَبْحاً، وَالْعَصْرِ.

٢ــ إن وقوع القسم في ابتداء السور له أثره النفسي، وفي بدء الكلام به جذب لانتباه السامع لاشتمال القسم على شئ من الرهبة عند وقوعه على سمعه، وعند ذلك يهيئ المستمع نفسه لتلقى ما يقال.

٣ــ إن القسم في أوائل السور فيه براعة استهلال (إذ إنه يعطيها نضرة في بهجتها، ورونقا في ديباجتها، فتلمع الأقسام في قسمات السور كالغرة البارقة)[1] لاسيما وقد أتت بما يألفه العرب ويحبّونه ويمجّدونه، ألا ترى أن القرآن أقسم بالبلد الأمين، وهي محبوبتهم مكة؟!

٤ــ إن القسم فيه تنبيه إلى أهمية المقسم عليه وإظهار مكانته وشرفه، كما أن فيه قطع الحجة على الكافرين المعاندين الذين سلك القرآن بهم كل طرق الإقناع، حتى لا يبقى لهم عذر.

٥ــ لله ــ تعالى ــ أن يقسم بما شاء من خلقه، لأنها مخلوقاته، وليس لنا أن نقسم إلا بالله ــ تعالى ــ.

---

(١) إمعان فى أقسام القرآن للفراهى ص ٥٧

٦ــ إن القسم القرآني وقع كثيرا على أصول الإيمان التى يجب على الخلق معرفتها، فوقع القسم على الوحدانية، وعلى أن الرسول مرسل من ربه، وعلى أن القرآن حق، وعلى يوم القيامة بما يشمله من بعث وحشر وحساب، كما أقسم القرآن على أحوال النفس البشرية.

٧ــ إن أكثر ما وقع عليه القسم فى القرآن الكريم من أصول الإيمان هو إثبات البعث، فقد جاء مقسما عليه فى معظم السور التى افتتحت بالقسم.

٨ــ كل السور القرآنية التى افتتحت بالقسم ذكر معها جوابها إلا فى بعض السور كسورة القيامة والنازعات، والفجر.

٩ــ إن التناسب بين المقسم به والمقسم عليه أمر قد راعاه القرآن الكريم فى إقسامه. فما من قسم أقسم الله ــ تعالى ــ به فى القرآن إلا كان معناه مطابقا لما جاء فى المقسم من أجله ولكن هذا أمر يحتاج إلى فهم عميق، وإلى طول تدبر وتأمل.

١٠ــ إن العلماء قديما وحديثا اهتموا بإبراز المناسبة بين القسم والمقسم عليه، فمن العلماء القدامى الذين أولوا هذا الأمر اهتمامهم الإمام الفخر الرازى فى تفسيره مفاتيح الغيب، وكذا النيسابورى صاحب غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ومن المحدثين الإمام الشنقيطى فى أضواء البيان والشيخ محمد الطاهر بن عاشور فى كتابه التحرير والتنوير.

١١ــ إن سورتى القيامة والبلد من جملة السور التى بدئت بالقسم، لما تبين من آراء العلماء أن إدخال (لا) النافية على فعل القسم مستفيض في كلام العرب، وفائدة دخولها توكيد القسم.

١٢ــ شدة حاجتنا إلى الاتعاظ والاعتبار بما أقسم عليه القرآن الكريم، فنعمل لما وعدنا الله ــ تعالى ــ به ونعلم أن الناس فى خسران إلا الصالحين الذين اشتروا آخرتهم بدنياهم.

اللهم ما كان فى هذا البحث من صواب فعظم لى به أجرا، وما كان من نسيان أو خطأ أو زلل فاغفره لى ولا تحمل علىَّ به وزرا.(رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم ــ جل من أنزله ــ.

١. الإتقان فى علوم القرآن لجلال الدين السيوطى ــ نشر دار الفكر

٢. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبى السعود محمد بن محمد العمادي ــــ نشر : دار إحياء التراث العربي ــ بيروت

٣. أساس البلاغة للزمخشرى ــ تحقيق محمود محمد شاكر ــ مطبعة المدنى ــ القاهرة ــ مصر ــ ١٩٩١م.

٤. أساليب القسم فى اللغة العربية لكاظم فتحى الراوى ــ مطبعة الجامعة ــ بغداد ــ ١٣٩٧ه ــ ١٩٧٧م.

٥. أسلوب القسم الظاهر فى القرآن الكريم بلاغته وأغراضه د/ سامى عطا حسن ــ موقع مكتبة صيد الفوائد http://www.saaid.net/book/index.php.

٦. أسلوب القسم فى القرآن الكريم ــ دراسة بلاغية لعلى بن محمد الحارثى ــ ط ١٤١١ه ــ ١٩٩١م

٧. أسلوب القسم واجتماعه مع الشرط لعلى أبو القاسم عون ــ منشورات جامع الفاتح ليبيا ١٩٩٢م.

٨. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي ــ نشر : دار الفكر للطباعة والنشر ــ بيروت ١٤١٥هـ ــ ١٩٩٥م

٩. الأعلام" قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعمرين والمستشرقين " لخير الدين الزركلى ــ نشر دار العلم للملايين ــ ط خامسة عشر ــ ٢٠٠٢م.

١٠. إمعان فى أقسام القرآن لعبد الحميد الفراهى ــ تعليق محمد سميع مفتى.

١١. بحر العلوم لأبى الليث نصر بن محمد السمرقندى ــ تحقيق د/محمود مطرجى ــ نشر دار الفكر ــ بيروت.

١٢. البحر المحيط لأبي عبد الله محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيان الأندلسى الشهير بأبى حيان ــ تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ــ الشيخ علي محمد معوض ــ نشر/ دار الكتب العلمية.

١٣. البحر المديد لأحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة المعروف بابن عجيبة ــ نشر دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط ثانية / ٢٠٠٢ م ــ ١٤٢٣ ه

١٤. البرهان فى علوم القرآن لمحمد بن بهادر الزركشى ــ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ــ نشر دار المعرفة ــ بيروت.

١٥. تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدى٩/٣٧١ــ٣٧٢ المطبعة الخيرية ــ مصر ــ ط أولى ــ ١٣٠٦هـ ــ ١٩٥٩م

١٦. التبيان فى أيمان القرآن لابن القيم ــ تحقيق عبد الله بن سالم البطاطى ــ نشر دار عالم الفوائد.

١٧. التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ــ نشر دار سحنون ــ تونس ــ ١٩٩٧م.

١٨. التسهيل لعوم التنزيل لابن جزى الكلبى ــ تحقيق محمد عبد المنعم اليونسى، إبراهيم عطوة عوض ــ نشر أم القرى للطباعة ــ القاهرة ــ مصر.

١٩. تفسير البيضاوى المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل للقاضى ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوى ــ نشر دار الفكر ــ بيروت.

٢٠. التفسير البيانى للقرآن الكريم د/ عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ ــ نشر دار المعارف

٢١. تفسير القرآن العظيم لأبى الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي ــ تحقيق سامي بن محمد سلامة ــ نشر دار طيبة ــ الطبعة : الثانية ١٤٢٠هـ ــ ١٩٩٩ م.

٢٢. التفسير القرآنى للقرآن لعبد الكريم الخطيب ــ نشر دار الفكر العربى

٢٣. تفسير القرطبى المسمى " الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآى الفرقان" لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى ــ نشر دار عالم الكتب ــ الرياض ــ المملكة العربية السعودية ــ ط ١٤٢٣ه ــ ٢٠٠٣م.

٢٤. تفسير الكشاف لأبى القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى ــ تحقيق : عبد الرزاق المهدي ــ دار إحياء التراث العربي ــ بيروت.

٢٥. تفسير النسفى المسمى مدارك التنزيل وحقائق التأويل لأبى البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي تحقيق : مروان محمد الشعار ــ نشر دار النفائس ــ بيروت ــ ٢٠٠٥م.
٢٦. التفسير الوسيط أ د/ محمد سيد طنطاوى ــ مطبعة السعادة ــ مصر.
٢٧. تهذيب اللغة لأبى منصور محمد بن أحمد الأزهرى ــ ط الدار المصرية للتأليف والترجمة.
٢٨. جامع البيان في تأويل القرآن لمحمد بن جرير الطبري ــ تحقيق أحمد محمد شاكر ــ نشر مؤسسة الرسالة ــ ط أولى ــ ١٤٢٠ هـ ــ ٢٠٠٠ م.
٢٩. الجواهر الحسان فى تفسير القرآن لعبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبى ــ نشر مؤسسة الأعلمى ــ بيروت.
٣٠. حاشية الشهاب الخفاجى المسماة "عناية القاضى وكفاية الراضى على تفسير البيضاوى " للقاضى شهاب الدين أحمد الخفاجى ــ نشر دار صادر ــ بيروت.
٣١. الدر المصون فى علوم الكتاب المكنون لأحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبى ــ نشر دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان ــ ط أولى ١٤١٤ه ــ ١٩٩٤م.
٣٢. دراسات فى علوم القرآن أ د/ محمد بكر إسماعيل ــ نشر دار المنار ــ ط أولى.
٣٣. الرأى الصحيح فى من هو الذبيح لعبد الحميد الفراهى ــ نشر دار القلم ــ بيروت
٣٤. روح البيان لإسماعيل حقى ــ نشر دار إحياء التراث العربى.
٣٥. روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى لأبى الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسى ــ نشر دار إحياء التراث العربى.
٣٦. زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى ــ نشر المكتب الإسلامى ــ بيروت ــ ط ثالثة ــ ١٤٠٧هـ
٣٧. السراج المنير لمحمد بن أحمد الخطيب الشربينى ــ نشر دار الكتب العلمية ــ بيروت.
٣٨. سنن أبى داود لأبى داود سليمان بن الأشعث السجستانى ــ نشر دار الكتاب العربى ــ بيروت.

٣٩. سنن الدارمي لعبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي. تحقيق : فواز أحمد زمرلي ، خالد السبع العلمي نشر دار الكتاب العربي ــ بيروت ــ ط أولى ١٤٠٧.
٤٠. السنن الكبرى لأبى بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي ــ نشر مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد ــ الطبعة : الأولى ــ ١٣٤٤ هـ.
٤١. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية تأليف إسماعيل بن حماد الجوهري ــ تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ــ نشر دار العلم للملايين.
٤٢. صحيح البخارى للإمام محمد بن إسماعيل البخارى ــ نشر مكتبة الإيمان ــ المنصورة ــ مصر ــ ط ١٤٢٣ه ــ ٢٠٠٣م.
٤٣. صحيح مسلم لأبى الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى ــ نشر دار الجيل ــ بيروت + دار الآفاق الجديدة ــ بيروت.
٤٤. صفوة التفاسير لمحمد على الصابونى ــ نشر دار الصابونى ــ ط تاسعة.
٤٥. عون المعبود شرح سنن أبي داود لمحمد شمس الحق العظيم آبادي أبو الطيب ١٦/٦ نشر دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط ثانية ــ ١٤١٥ه.
٤٦. غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري ــ نشر دار الكتب العلمية ــ بيروت / لبنان ١٤١٦ هـ ــ ١٩٩٦ م. ط أولى.
٤٧. فتح البارى شرح صحيح البخارى للحافظ ابن حجر ــ مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده ــ مصر ــ ١٣٧٨ه ــ ١٩٥٩م + نشر دار المعرفة ــ بيروت
٤٨. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني ــ نشر : دار الفكر ــ بيروت
٤٩. الفروق اللغوية لأبى هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى ــ نشر دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان ــ ط أولى ــ ١٤٢١ه ــ ٢٠٠٠م
٥٠. الفوائد المشوق إلى علوم القرآن لابن القيم ــ ط مكتبة المتنبى ــ القاهرة
٥١. فى ظلال القرآن لسيد قطب ــ نشر دار الشروق ــ ط الثالثة عشرة ــ ١٤٠٧ه ــ ١٩٨٧م.

٥٢. القاموس المحيط لمجد الدين الفيروز آبادى ــ ط دار الحديث.
٥٣. القرآن وإعجازه العلمى لمحمد إسماعيل إبــراهيم ــ دار الفكــر العربــى للطبــاع والنشر.
٥٤. القسم فى القرآن د/ حسين نصار ــ نشر مكتبة الثقافة الدينية ــ ط أولى ١٤٢١ه ــ ٢٠٠١م.
٥٥. القسم فى اللغة وفى القرآن لمحمد المختار السلامى ــ نشر دار الغَرب الإســلامى ــ بيروت ــ ط أولى.
٥٦. الكتاب لسيبويه أبى بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ــ تحقيق عبد الســلام محمــد هارون ــ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.
٥٧. الكشف والبيان فى علوم القرآن د/ سمير عبد العزيز شليوه ــ مطبعة دار البيــان ــ مصر
٥٨. الكشف والبيان لأحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري ــ تحقيق : الإمــام أبي محمد بن عاشور ــ نشر دار إحياء التراث العربي ــ بيروت - لبنان ــ ١٤٢٢ هــ ــ ٢٠٠٢ م ــ ط أولى
٥٩. الكون والإعجاز العلمى د / منصور حسب النبى ــ ط دار الفكر العربى ــ ط ثالثــة ــ ١٩٩٦م.
٦٠. لباب التأويل فى معانى التنزيل لعلاء الدين علي بن محمد بــن إبــراهيم البغــدادي الشهير بالخازن ــ نشر دار الفكر ــ بيروت.
٦١. اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الدمشقي الحنبلي ـــ تحقيق : الشــيخ عــادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض ــ نشر دار الكتب العلمية ــ بيــروت ــ لبنان ١٤١٩ هــ ١٩٩٨ م ــ ط أولى.
٦٢. لسان العرب لجمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقى المصرى ابن منظور ــ نشر دار الحديث ــ القاهرة.
٦٣. لمسات بيانية فى نصوص من التنزيل د/ فاضل صالح السامرائى ــ نشر دار عمــار ــ عمانــ الأردن ــ ط ثالثة ــ ١٤٢٧ه ــ ٢٠٠٦م +

http://www.ahlalhdeeth.com

٦٤. مباحث فى علوم القرآن لمناع قطان ــ نشر مؤسسة الرسالة ــ ط الثانية والعشرون ــ ١٤١٠ه ــ ١٩٩٠م

٦٥. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد لنور الدين على بن أبى بكر الهيثمى ــ نشر دار الفكر ــ بيروت ــ.

٦٦. المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز لعبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسى ــ تحقيق عبد السلام عبد الشافى محمد ــ نشر دار الكتب العلمية ــ ١٤١٣ه.

٦٧. مختار الصحاح لمحمد بن أبى بكر عبد القادر الرازى ــ تحقيق محمود خاطر ــ نشر مكتبة لبنان ناشرون ــ بيروت.

٦٨. المخصص لأبى الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيده تحقيق : خليل إبراهم جفال ــ نشر دار إحياء التراث العربي ــ بيروت ١٤١٧هـ ١٩٩٦م ــ الطبعة : الأولى.

٦٩. المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابورى ــ ط دار المعرفة ــ بيروت ــ لبنان.

٧٠. مسند أحمد ــ تحقيق شعيب الأرنؤوط ــ عادل مرشد، وآخرون ــ نشر مؤسسة الرسالة ــ ط أولى

٧١. المصباح المنير أحمد بن محمد بن على الفيومى ــ نشر المكتبة العلمية ــ بيروت.

٧٢. معالم التنزيل للحسين بن مسعود البغوى ــ نشر دار طيبة ــ ط رابعة ــ ١٤١٧ه ــ ١٩٩٧م

٧٣. معانى القرآن وإعرابه لأبى إسحاق إبراهيم بن السرى الزجاج ــ تحقيق د/عبد الجليل عبده شلبى ــ ط عالم الكتب ــ ط أولى ــ ١٤٠٨ه ــ ١٩٨٨م

٧٤. المعجم الكبير للطبرانى لسليمان بن أحمد بن أيوب ــ تحقيق : حمدي بن عبدالمجيد السلفي ــ نشر مكتبة العلوم والحكم ــ الموصل ــ ط ثانية ــ ١٤٠٤ ه ــ ١٩٨٣م

٧٥. معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس ــ تحقيق عبد السلام محمد هارون ــ نشر دار الفكر ــ ط ١٣٩٩ه ــ ١٩٧٩م.

٧٦. مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصارى ــ تحقيق د/مازن المبــارك، ومحمد على حمد الله ــ نشر دار الفكر ــ بيروت ــ ط سادسة.
٧٧. مفاتيح التفسير" معجم شامل لما يهم المفسر معرفته من أصول التفسير وقواعــده ومهاماته " أ د أحمد سعد الخطيب ــ نشر دار التدمرية ــ الرياض ــ المملكة العربية السعودية ــ ط أولى ــ ١٤٣١هـ ــ ٢٠١٠م.
٧٨. مفاتيح الغيب لأبى عبد الله محمد بن عمر بن الحسين الملقب بفخر الدين الــرازى ــ نشر دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط أولى ــ ١٤٢١ه ــ ٢٠٠٠م
٧٩. المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ــ نشر دار القلم ــ دمشق.
٨٠. المنهاج شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج "شرح النووي على صــحيح مســلم" للإمام يحيى بن شرف النووى ــ نشر دار إحياء التراث العربى ــ بيروت ــ ط ثانية ــ ١٣٩٢ه.
٨١. نظم الدر فى تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقــاعى ــ نشــر دار الكتــاب الإسلامى ــ القاهرة. ط ثانية ــ ١٤١٣ه ــ ١٩٩٢.
٨٢. هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين لإسماعيل باشا البغــدادي ــ طبــع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها استانبول سنه ١٩٥١ ــ دار إحياء التراث العربي بيروت ــ لبنان